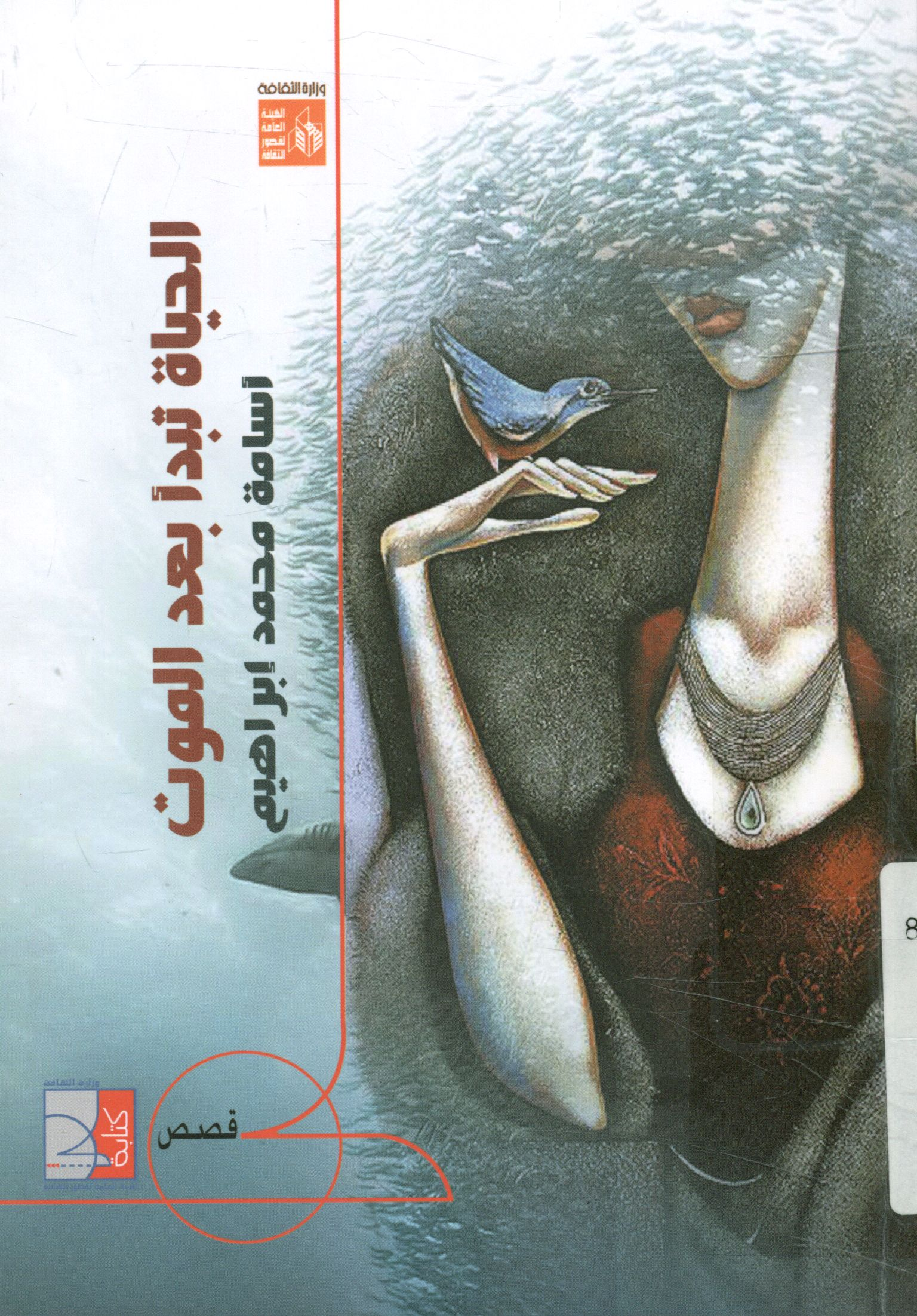

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة
الحياة تبدأ بعد الموت
أسامة محمد إبراهيم
قصص
وزارة الثقافة
كتابة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

الحياة تبدأ بعد الموت

قصص

أسامة محمد إبراهيم

وزارة الثقافة



سلسلة
كتابة

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

- الحياة تبدأ بعد الموت
- أسامة محمد إبراهيم

الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 2014م

- تصميم الغلاف:

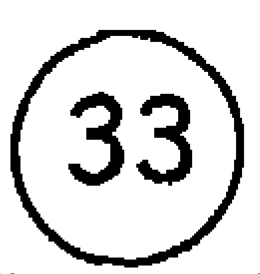
أحمد الجناينى

- تدقيق لغوى: ياسر المحمدى
- رقم الإيداع: ٢٢٥١٢/ ٢٠١٤
- الترقيم الدولى: 978-977-718-957-6
- المراسلات:

باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)

- الطباعة والتنفيذ:

شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096



سلسلة شهرية تعنى بنشر إبداعات الشباب

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

الحياة تبدأ بعد الموت

(من خلال الثورة نصبح أنفسنا أكثر... لا أقلّ)

(جورج أورويل)

الحياة تبدأ بعد الموت

صعدت الدرج مترددا، وأنا أفكر أن الصاعدين إلى منصة الإعدام - بالتأكيد - لا يختلف شعورهم عما أشعر به الآن، قديما كانوا ينقدون الجلادين (بقشيشا) لإنهاء الأمر سريعا، بدون الكثير من الألم.. ترى هل أجد من أدفع له الآن؟!

ضغطت زر الجرس وأنا أخطط للهروب، وتغيير اسمي وعنواني، وربما تغيير ملامحي أيضا..

ثم انهارت خططي كلها عندما انفتح الباب، وأطل منه قدري المحتوم، أقصد حماتي مستقبلا، وخالتي سابقا وحاضرا وإلى ما لا نهاية.. أذكر أنني كنت أخافها كثيرا وأنا طفل، و ما زلت.. كل الصغار كان يقال لهم أن يكونوا مؤدبين حتى لا يأتي (العاو) ليأكلهم، دون أن يكونوا يعرفون من يكون ذلك (العاو)، أما أنا فكنت أعرف بالتحديد من يكون!

يمكننى أن أصفها لك فى عدة صفحات ، لكننى أفضل أن أقول إنها ذات (شخصية كاسحة - نظرات نارية - تكوين جسدى يحسدها عليه)هرقل(شخصيا) ، وأتركك تتخيل الباقى !.

ملامح الثورة واضحة ، الشرر يتطاير من العينين، وأشياء أخرى . .

كنت أعرف ما عليَ فعله كأى مجرم أثيم قبض عليه متلبسا بالجرم المشهود ، فتبعتها مستسلما عندما أدبرت ، ودخلت لأجلس في غرفة الضيوف ، حيث كان زوج خالتى ضئيل الجسم جالسا - أقصد نائما - كعادته أمام الفيلم الهندى ذى الخمس ساعات . .

ربما لو لم أكن قريبه لطلبت منه مساعدتى فى الهرب ، إلا إننى كنت أعرف أنه حاول فعل ذلك كثيرا ولم ينجح ، هكذا رضى بمصيره ، رضا سجين قنِطَ من إثبات براءته !

لذا ، وبما أننى أعرف تهمتى مسبقا ؛ بدأت فى ترتيب روايتى حتى لا أرتبك . . ولم تمض ثوان حتى كانت (وكيل النيابة) قد جاءت لتفتح محضر التحقيق فى ساعته وتاريخه . .

تسألنى بكل صرامة :

- ماذا فعلت لابنتي أيها المعتوه ؟ هي تقول إنها لن تتزوجك حتى لو كنت أخر رجل على وجه البسيطة !

حاولت ازدراد ريقي ، ففشلت ، فجاءت إجابتى بليغة جدا :

- لا . . لا ش . . ش . . شيء . . ك . . كل . . خي . . خير !

كررت من جديد مع زيادة جرعة الصرامة :

- أسألك ماذا فعلت لها ؟ إنها تقول إنك جننت ، لكنها لم

تخبرني بما هو أكثر . أما أنت فستفعل ، وتحكى لى ماذا جرى بالتفاصيل المملة على طريقة (بلزاك) .. كل التفاصيل ، حتى التى ليس لها دور فى الأحداث !

نظرت إليها متعجبا ، إنها تبهرنى بثقافتها كل يوم .. ليكن . لا مفر إذن من الاعتراف ، على الأقل قد يخفف هذا من العقوبة !

نسيت أن أخبرك إننى مخطوب لابنة خالتى ، لأن عائلتنا وككل العائلات كريمة المحتد ، ما أن تفتح عينيك على الدنيا حتى تجد أن دراستك قد اختيرت لك ، ومن ثم عملك ، وزوجتك ، وآراؤك وميولك . وأصدقاؤك وأعداؤك ، وربما تسريحة شعرك كذلك .. كل شيء غدا جاهزا ، ولم يعد لك دخل فى حياتك على الإطلاق ، فقد تكفلت العائلة بكل شيء .. وهو ما يجعلك تتساءل عما كان هؤلاء الناس سيفعلونه فى حياتهم لو كنت قد غيرت من خططك !!

لاحظ إننى أتكلم هنا عن خطوبة ، لابد لها من (تابوهات) مقدسة لا أفهمها ..

لابد من (كازينوهات) على النيل ، ونزهات فى النيل نفسه بالمراكب ، وحديقة الأسماك ، وحديقة الأورمان ، وهدايا سخيفة ، والكثير من المصروفات التى تفلسك ، إلخ إلخ .. ومن يدرى ربما عدنا مراهقين ، إلى مرحلة الخطابات الملتهبة ، وأغانى الحب ، والحديث إلى القمر .. فالهانم - خطيبتى - تكره فكرة الزواج التقليدى ، وأصرت - إصرار اليهود على إصابة (موسى) بالفالج - أن تعيش قصة حب قبل الزواج ، لعنة الله على السينما التى أطارت ما بقى من عقولهن !

شرحت لها مرارا أن أمر زواجنا أصبح من مسلمات الكون بالنسبة لأمها، كدوران الأفلاك حتى لو كنا نكره بعضنا بعضا كجرير والفرزدق، ولا حياة لمن تنادى!

كان اليوم هو الأول لنا، الذى نخرج فيه وحدنا.. ذهبنا كما تقضي القواعد الصارمة - وكما تخمن - إلى ذلك (الكازينو) المطل على النيل، الذى كنت ولا أزال أراه مكانا لا معنى له، إن مجرى النيل طويل، يمكنك الجلوس قبالته فى أى مكان دون أن تدفع كل ما فى جيبك..

مضى الوقت بنا، وطالت جلستنا لساعات، حتى همس النادل فى أذنى أن المكان سوف يغلق، وعلينا دفع الحساب..

كانت الفاتورة سمينة كبقرات (يوسف) السمان، فالحب يحتاج إلى تغذية جيدة بالطبع، الفارق هنا أنها من سيلتهم البقرات العجاف هذه المرة.. إلا إننى لم أحب يوما إحساس الأبله الذى يدفع دون مناقشة، خاصة فى مكان كهذا، لذا شرعت على الفور فى مراجعة الفاتورة، أملا فى خطأ ما يخفض المبلغ المصاب بمرض (الفيل)!

ولما طالت العملية، طلبت من النادل وسط عرقى أن يعود بعد قليل، عندها تدخلت خطيبتى ضاحكة:

- لم كل هذه الحيرة؟ إن الحساب سهل للغاية.. هل ستظل فاشلا فى الرياضيات طوال حياتك؟!

ابتسمت في خجل، إنها لا تعرف سر هذا الفشل، بالأحرى لا تعرف سوى نصف القصة الذى قصصته للجميع، أما النصف الأخر

فلا يعرفه أحد.. لقد جاءت الفرصة لأخبرها باقي القصة، وأيضا لأخبرها الأمر الهام الذى أتردد فى إخبارها به منذ زمن.. إنها ستصير زوجتي، من حقها أن تعرف كل شيء عني..

أنا متيقن أن بعض الأمور من الأفضل إخفاؤها، لأنها ستجلب الكثير من المشاكل، لكنني أنتظر منها الرد بالمثل، لا يجب أن توجد أسرار بيننا..

نقدت النادل - مضطرا - المبلغ، راجيا منه أن يعامله جيدا لأنه يحمل قطعة من لحمي الحي، وتنحنحت لأحكي القصة:

"القصة يا عزيزتي تعود إلى سنوات بعيدة، إلى المدرسة الابتدائية بالتحديد، عندما كنا شياطين صغارا، لا نرى أية فائدة للمدرسة، اللهم إلا إيقاظنا مبكرا مكرهين، ومجموعة من الكبار يقولون كلاما لا نفهمه، ويضربوننا بداع وبدون داع، أضيفي إليها الحقن الكثيرة التي كنا نتلقاها أيامها، وهى كما ترين ليست فوائد أبدا.. بحيث صارت المدرسة فى نظرنا معتقل (اوشفيتز) النازى، لو كنا نفهم هذا حينها..

لكن كان هناك الأستاذ (أيسر)، وما أدراك ما الأستاذ (أيسر)!

أعرف أن اسمه غير مألوف للأذن، لكن هذا كان اسمه بالفعل.. كان معلم مادة (الحساب) قبل أن تكبر، وتتغول، وتتعقد، وتتحول إلى (الرياضيات)!

كان ببساطة إنسانا رائعا لا يتكرر، أظنك تتخيلين نوعية الشخصيات التى تدخل قلوب الأطفال؛ لطيف المعشر للغاية، رقيق

الحاشية. قصير القامة إلى درجة تقترب من أجسامنا. بشوش الوجه دائما.. لم يكن يشرح الدروس كباقي المعلمين. كان يلاعبنا، ويغني معنا، ويعطينا هدايا وألعابا. لم يضربنا ولو مرة واحدة. لذا أحببناه وأحببنا مادته جدا..

أنت تعرفين إنني كنت طفلا ثائرا على مبدأ المدرسة من الأساس، ربما لو كنت أعيش في الخارج لأطلقوا على حالتي (Anti-School)، لو كان هناك مصطلح كهذا، ورغم ذلك فقد كنت أحرص على الذهاب إلى المدرسة من أجله!

يوما ما اختفى الأستاذ (أيسر)، وظللنا بإلحاح الأطفال نسأل عنه، ولما لم يرد أي من المعلمين إجابتنا، قررنا أن نتجمع لنزوره في بيته، باعتبار كل من يختفي هو مريض بالتأكيد.. إلا أن عم (محمدين)، فراش مدرستنا العجوز الموجود هناك منذ بدء الخليقة، كان أقل تحفظا من الآخرين، وأخبرنا في لامبالاة إن الأستاذ (أيسر) قد مات. وبالتحديد قتل في حادث بشع تحدثت عنه الصحف.

يقول علماء النفس أن الطفل لا يدرك معنى الموت قبل سن العاشرة، بيد أنني أتذكر أني فهمت الأمر. وظللت حزينا لوقت طويل، رفضت خلاله تماما محاولات والدي لحملي على الذهاب إلى المدرسة، وهو كما ترين أفضل استغلال للظروف، أنا الكاره أصلا للمدرسة، والتي كانت بالنسبة لي قد أمست جحيما حقيقيا بدون الأستاذ (أيسر)!

بعدها جاء الأستاذ (أيمن) كبديل له، وأظنك تلاحظين المفارقة في الأمر.. هو المضاد له، أو المعادل كما يقولون، حتى في

اسمه .. عملاق بمقاييسنا إنها : رأس كبير ، وجبهة عريضة ، وملامح قاسية ، عابسة دائما تذكرك ببطل العالم فى الملاكمة ، وصوت خشن يبعث القشعريرة في جسدك ، كأنه صوت محرك سيارتكم (اللادا) القديمة ، وكفان يكافآن أيادينا لو وضعناها جنبا إلى جنب !

كان يرى أن جهل تلميذ - وعليك أن تخمنى من هو - بحاصل ضرب (٢) في(٧) ، هو ذنب يستلزم عددا محترما من ضربات عصاه الغليظة ، أما جهل نفس التلميذ بحاصل ضرب(٨) فى (٨) فهو خطيئة ، قد تستدعى انتقال ضربات العصا من اليدين إلى القدمين ، أو ربما بعض السياط على العروسة .

كرهت (الرياضيات) ، وعانى والدى ما لم يعانه (جالليلو) فى إقناع الكاردينالات أن الأرض هى التى تدور حول الشمس ، وهو يحاول أن يشرح لى منهج (الرياضيات) .

كنت أتمنى لو عاد الأستاذ (أيسر) ، وأحلم به كل ليلة ..

بعد فترة قصيرة حدث أعجب الأمور طُرًا ؛ عاد الأستاذ (أيسر) بالفعل ! !

أرى الدهشة ترسم ملامحها على وجهك ، صدقينى حدث هذا .. عاد فجأة ، وجاء يدرسنا يوم السبت ، فقد كانت الحصة الأخيرة من هذا اليوم ملفوظة دائما من واضعى الجدول ، لا مواد لها ، كأنها بطة (كريستيان اندرسن) القبيحة ، فكان هو يظهر لنا فيها ..

نعم يظهر. لم يكن يدخل مثلنا من الباب.. هناك أناس لا تعرفين من أين يأتون. هل رشح على الحائط مثلا؟! هل تكاثف على السقف؟! أنت تجدينه أمامك بدون تفاصيل!

كان يبدو كما اعتدناه دوما؛ مهندما، براقا، حتى أنه مازال محتفظا بابتسامته الجميلة.. كنا نغرقه بالأسئلة عما حدث له، ولم يكن يلقي بالا. كان يقوم بما كان يفعله دائما، يشرح لنا بأسلوبه الممتع، وسرعان ما نندمج معه، وقد تاهت منا تساؤلاتنا..

ولأن الحال كان أروع من أن يكون، فقد كان مسئولو المدرسة العباقرة يتذكرون خطأهم فى هذا الوقت بالذات، متسائلين عن هدوء هؤلاء الشياطين، الذين كان حريا بهم أن يحولوا الفصل إلى سيرك، أو على الأقل أن يقيموا مسابقة فى القفز من الدور الثالث.. فلا يلبثون حتى يرسلوا إلينا الجنرال.. أقصد الأستاذ (أيمن) من جديد..

هكذا كان الأستاذ (أيسر) يختفى فجأة كما ظهر، ويتحول الفصل من جديد إلى معتقل!

كنا عندها، وبحس طفولى بريء، لا يراعى أى قواعد، نتقافز كالقرود مطالبين أن يعود إلينا الأستاذ (أيسر)..

فى البداية كان يتجاهل الأمر، لعله كان يقول فى نفسه: إنهم أطفال ولم يدركوا بعد أنه مات!

مع تكرار الأمر، كانت ثائرته العظمى تثور، فتهتز الأرض لهولها؛ مما يجعلنا نئوب إلى منازلنا بأيادى متورمة، وأشياء أخرى!

وعلى هذا الحال مرقت الأيام، وكرت الأعوام، حتى انتهت المرحلة الابتدائية. وانتهى الأستاذ (أيسر) من حياتى تماما . . لم أره بعد ذلك قط، وإن ظلت صورته الباسمة ماثلة دوما فى خيالى . . وبقيت القاعدة كما هى، معلمو (رياضيات) كريهون منفرون، جعلونى أكره المادة أكثر فأكثر، حتى انسحب الأمر على عمليات الجمع والقسمة والضرب اليومية . . تلك هى القصة كلها ! !

وهو ما يرود لى الطريق لأخبرك أننى"

لم أستطرد، حتى وجدت كوب العصير - الذى لم أتذوق منه قطرة، آملا عدم دفع ثمنه - وقد طار ليغرق ملابسى، ثم استقر مائة قطعة على الأرض، والفاعلة - مع سبق الإصرار والترصد - تختطف حقيبتها، وترحل مع الكثير من البرطمة عن الجنون الذى ابتلاها الله به !

تلفت حولى بطرف خفى . . الوضع هادئ، وكل يسبح فى فلكه، فاسترخيت فى مقعدى مرتاحا، إننى زاهد أيما زهد فى أن أتحول إلى (البلياتشو) الذى يؤدى الفقرة الترفيهية هنا . .

الخرقاء لم تعطنى الفرصة لأخبرها بالأمر الهام، الذى قصصت كل ما فات كتمهيد له . .

الجانب المشرق هنا هو إنها قذفتني بالعصير من أجل ما قيل فقط، فما بالك بما لم يُقل بعد؟ ! لابد أنها كانت ستلقينى فى النيل جزاءا وفاقا .

***

تنهدت عميقا وأنا اختم اعترافي . . وقلت بتوجس :

- هذا هو ما حدث بالتفصيل يا سيدى المحقق . . أقصد يا خالتي !

كنت أتابع أى تغير في ملامحها بينما أحكي ، إلا أنها بقيت كما هي . .

ولبعض الوقت ظلت تشملنى بنظراتها النارية ، حتى كدت أعترف أننى من أكل الكيك الذى أعدته منذ عشرين عاما ، وأننى من فتح القفص للببغاوين ليهربا . . ثم قالت لى بلهجة مرعبة تعودتها مذ كنت طفلا :

- لا تحسبنى لا أفهم فيم تفعل كل هذا ، لقد رأيتك تكبر أمامى يوما بيوم ، وأعرفك كما أعرف نفسى . . الأمر واضح تماما كحمار وسط الغزلان !

كدت أعترض على هذا التشبيه الشاعرى ، بيد أنها تابعت :

- أنت تحاول أن تتهرب من إتمام الزواج ، تريد جعلنا نظن أنه قد مسك خبال ما ، بعد إصابتك فى ميدان (التحرير) ، فلا نتمم الأمر . . هيهات ، هذا لن يحدث يا عبقرى حتى فى أجمل أحلامك ، أنت و (أنجى) مخطوبان منذ كنتما مجرد وليدين . . لا يعنينى ما تشاهده فى التلفاز ، أو تقرؤه فى روايات ذلك الكاتب المخرف الذى تحبه ، كل ما يعنينى أنك - والآن - ستعتذر لها ، وتخبرها أن الأمر كان لا يعدو مجرد مزحة ثقيلة الظل ، وليكن فى معلومك إنكما ستتزوجان ، قولا واحدا ، مهما حاولت التملص . . سأقوم الآن لأخبرها بوجودك ، كى تردد على مسامعها ما لقنتك ، وإلا فلا تلومن إلا نفسك ! !

تنفست الصعداء. وأنا لا أصدق أنني نجوت بعدما ضاقت حلقاتها، وعوت الذئاب في الوديان، وقامت الوحوش من مضاجعها، ولمعت النصال، وأيقنت الهلاك..

امرأة عملية حتى النخاع، هي. لا تضيع وقتها في تفاهات، جُل ما يهمها هو زواج بناتها، وليحترق العالم بعد ذلك.

حقا أن تكون في بلدنا، ومسئولا عن ستة بنات. لهو أمر قاس بالفعل، لابد أنك ستكون قد تحولت إلى هيكل عظمى، وأنت تغلق على ابنتك الأخيرة باب بيت الزوجية!

لا ألومها أبدا، لقد شطبت (أنجى) من قائمة الانتظار، وانتقل الدور إلى أختها الصغرى.. الأمر بالنسبة لها منته، وأنا زوج ابنتها مهما حدث، ثم إننى بعد ذلك ابن أختها، وهو ما يجعلنى مكبلا أكثر في المصيدة..

كنت أفكر كيف سأخبر (أنجى) بذلك الأمر..

الأمر الذى لابد أن تعرفه عن الشخص الذى ستعيش معه طوال عمرها..

لقد قصصت عليها قصة الأستاذ (أيسر)، والتى هى حقيقية تماما، ظانا - بسذاجة- إنها قد كبرت، ويمكن أن تصدقنى فيما قلته، وتسهل علىّ مهمة ما يلى.. لكنها حمقاء تماما، لا هدف لها في الحياة - كوالدتها - سوى أن تضيف لقب (مدام) قبل اسمها، دون أى تدقيق فيمن سيجعلها تحمل هذا اللقب.. هاته النسوة يستحققن أن يخدعن حقا، لقد كانت تلك الشابة خليقة أن تتزوج

بحيوان زنيم لا خلاق له. يصعقها بالكهرباء طوال النهار، ويشويها على الفحم طوال الليل. لعلي لا يجب أن أقسو عليها كثيرا. إنها قصة لا تصدق بالفعل، ربما لو قال لي أحدهم شيئا كهذا لما اختلف رد فعلي..

المعضلة هنا هي أن الأمر الذى أكتمه في صدرى هو أشد وطئا، وأكثر جموحا مما قيل.. أمر إطار عقلي، وكاد أن يجعلني أتحول إلى مجنون حقيقي!

حمدا لله أننا مطالبون دوما بإثبات أننا أحياء، ولسنا مطالبين بالعكس!

ربما أكون قد فكرت يوما أن أغلق على ذلك الأمر جدران قلبي، فلا أخبر به أحدا مهما كان، بيد أنني اليوم أريد أن أتكلم، أريد أن أخبر زوجة المستقبل أنني الآن ميت.. تلك حقيقة لا هزل فيها.

أريد أن أخبرها أنني قد شهدت موتي بكل تفاصيله.. ربما أكون قد شعرت حينها أنني حي، لكنني أدركت فيما بعد أنني كنت ميتا فعلا، وصارت قناعاتي القديمة موطئ شك.

***

أذكر تاريخ وفاتي تماما كما تذكر أنت تاريخ ميلادك،

لن يغيب عن ذاكرتي يوما ذاك المشهد في ذلك اليوم، كأنه حفر هناك..

دعني أخبرك، وأنا أعرف عم أتكلم.. إنه مشهد نادر الوجود، يكشف لك أشياء كثيرة..

يكشف لك كم كنت تقرأ من معان جميلة. لكن لا تحسها حقا. وكم كانت حياتك بلا قيمة!

وسط الجموع الغفيرة الثائرة. هكذا كنت..

هناك تشعر بذاتك تذوب تماما، وتندمج مع الآخرين، فتصيرون جسدا واحدا عملاقا، كما كان أبطال إحدى قصص (كليف باركر) يفعلون.. فتتألم لمن أصيب، وتتحسر لمن فقد عزيزا، وتموت مع من مات!

هناك.. حيث الإشعاع السايكوفيزيائي العنيف، والحماس الذي ينتشر نارا في هشيم، ويجعلك تثق أنه لم يعد هناك مستحيل..

فتثق أن آلهة الأولمب الحاكمة يمكن بالفعل أن تترك عروشها، بعد أن حسبتها باقية حتى يوم الحساب، ولن ترحل أبدا مهما زلزلت الأرض وزأرت العواصف..

وتثق أن المشاكل كلها سوف تنتهي في طرفة عين، وأن الناس سيصيرون ملائكة تمشي على الأرض، وأن يوتوبيا (توماس مور) سوف تسود الأرض.

دمعت عيناي فرحا وأنا أتأمل المشهد الخلاب، وأتيه في الصوت الهادر..

أحداث كثيرة وقعت يومها..

رصاص ينطلق حاملا معه الموت، وغاز خانق يفعم الصدور، وأجساد تدهس تحت العجلات.. معركة الميدان الشهيرة التي واجهناها بصدورنا العارية.

كنت أشعر بالانتصار وأنا أدخل الميدان. الذى صار لنا. والسعادة والنشوة تجتاحانى. .فجأة انقلب كل شيء.. شعرت كأن سهما ناريا اخترق صدرى..

لم أجد الوقت كى أفاجأ، كى أندهش، كى أتألم. وجدتنى أتهاوى من فورى كجوال فارغ..

كانت طلقة مصوبة بعناية قد سكنت قلبى!

لابد أن أتذكر أن أحيي ذلك القناص الذى درس التشريح جيدا، أنه يؤدى عمله بكفاءة وإتقان حقيقيين.

أذكر زملائى وهم يلتفون حولى، ثم يشرعون فى عملهم دون كلمة واحدة، ودون أن تشف وجوههم عن أية مشاعر، يبدو أنها كانت ترفا فى ذلك الوقت.. فيحملوننى إلى المستشفى الميدانى، الذى كانت تعمه فوضى عارمة، وسط الصراخ، والدماء، والأجساد التى تتعثر فيها فى كل شبر..

الطبيب يخبرهم فى أسى أنه لا فائدة من المحاولة، عندها نزلت الصاعقة علىّ، قبل أن تنزل عليهم.. حزن؟! لابد أنه كان هناك حزن، لابد أن بعض الرقيقات قد ذرفن بضع دمعات، بيد أن الأمر لم يستمر سوى ثوان، قبل أن تمتد الأيادى لتحملنى من جديد، إفساحا لطابور من القادمين.. ألم أقل أن المشاعر كانت ترفا!

اضطربت أفكارى بشدة.. وجدتنى مندهشا.. أهذا هو الموت؟! أهذا هو الامتحان النهائى؟! لقد وجدتنى أريد الاحتجاج.. كيف

أموت ولا أجد من يبكينى، ولا من يلطم على خدا، ولا من يشق على جيبا؟! ، هلموا، فليبلغ أحدٌ أهلى.

كنت أتصوره أشد وطئا، كنت أتصوره معاناة، ورعبا، وأشياء أخرى، وليس بهذه السهولة والبساطة!

لكننى سرعان ما أدركت أنهم مخطئون.. أنا لم أمت بعد، لقد أخطأ الطبيب، وكم سمعت عن أخطاء قاتلة كهذه.. نعم لازلت حيا، ثم أن صدرى يؤلمنى بشدة..

كنت أريد أن أتحرك، أتأوه، أصرخ فيهم: أنا حى، أنا حى.. لكن الصرخة لم تكن تغادر عقلى!

كانوا ذاهبين بى إلى هناك، وأنا مازلت أحاول تنبيههم إلى أى خطأ شنيع يقترفون، قبل أن يضعونى فى الظلام وسط أجساد عديدة تنتظر التكريم!!

لا أذكر تلك اللحظات القاسية جيدا، ثمة مواضع بيضاء فى ذاكرتى، يبدو أن النسيان الهيستيرى لعب دورا هاهنا.. كل ما أذكره أننى عندما نظرت إلى الأجساد الهامدة ملكنى الرعب، وأنا صاحب القلب الضعيف، ثم تحول الرعب إلى جنون..

لا أعرف كم لبثت هناك، فكل ما أجده فى عقلى هو مشهدهم وهم يضعوننى هناك، ثم مشهدهم وهو يعودون..

كان تخمين ما هو قادم ليس صعبا أبدا، لذا اجترحت المعجزات حتى ألفت انتباههم إلى الحقيقة، حاولت أن أحرك أيا من أطرافي، أو حتى أرمش بعينى، بلا جدوى، تمنيت لو كنت مثل تلك

الفرنسية التى أصيبت بغيبوبة. وكادت تدفن حية، لولا دمعة نزلت منها فأنقذتها من هذا المصير الأسود..

ربما حتى لو كان أحدهم قد لاحظ شيئا، لاتهمه الباقون بهيستيريا (رؤية مشهد الميت) الشهيرة.

كما ترى كان الخناق يضيق علىّ، ولم يعد ثمة مهرب.. كنت هناك، على منضدة التشريح الباردة.. ذلك المكان الذى طالما أثار رعبى عندما كنت أشاهده فقط فى التلفاز. وكنت أقشعر بدنا من مجرد تخيل دخولى إليه.. ها أنا الآن أفعل، إنما لست زائرا.

أذكر الطبيب وهو يعمل.. كان هناك مبضع حاد، وقاطع كهربى، وأدوات كثيرة.. وكان هناك ألم رهيب فى صدرى، جعلنى أصرخ صرخات مرعبة، فى عقلى طبعا.. الغبى لم يدرك أننى أشعر بكل ما يفعل.. وفى النهاية بات صدرى مفتوحا كنافذة حجرتك!

كنت قد بدأت أتشكك فى قناعاتى، فالجماعة لها تأثير كاسح كما تعرف، لا يمكن أن يكونوا كلهم مخطئين، وأنا الوحيد المحق..

لعلى لم أكن قد قنطت بعد من إثبات حياتى، لكن من كان سيصدق إنسانا قلبه صار خارج صدره، يقول إنه لا يزال حيا. أراهن أننى حتى لو كنت قد تمكنت من الوقوف حينها لاتهمونى بالجنون، وطالبوني بالرقود من جديد، لأنه ليس لديهم لا الوقت، ولا البال للمزاح، بعدها يحدث قطع كما فى السينما، لأجدنى أعيش اللحظات الرهيبة.. لحظات نزولى إلى هناك.

الهمهمات والنحيب من حولي. الهتافات الغاضبة القادمة من الميدان. تماوج الناس أسفلي. الذى جعلني أتخبط في جدران الصندوق حتى تورم رأسي..

كان رعبي يُعجز الكلمات، الرعب الوحشي الذى يفقدك أي حكمة باقية في عقلك، ويجعلك تريد أن تقفز، تصرخ، تتشنج، تضرب الصندوق بكلتا يديك حتى تتورما، بيد أن هذا كان ترفا لم أتمتع به..

وسرعان ما احتشد في عقلي أخر ما كنت أريد تذكره، (يانج) كان عبقريا عندما كتب عن الوجدان الجمعي، والمخاوف المتراكمة في نفوسنا.. لقد شعرت وقتها أن كل فكرة دارت بذهن إنسان ارتعب من الدفن حيا قد احتشدت في رأسي.

أخذت أدعو الله أن أموت بالفعل، لم أعد أريد إقناعهم أنني حي، كل ما أردته حينها هو الخلاص من الهول الذى أعيشه.. أخذت أفكر، ماذا لو كنت مستطيع الحركة؟ لربما خنقت نفسي وارتحت.. لكنني بهذا الشكل سوف أفقد الوعي فقط واستيقظ من جديد.. وماذا عن محاولة ثقب سرتي؟ وماذا عن.. وماذا عن..

متى يأتي الخلاص.. متى يأتي الخلاص؟!

ها هم يرقدونني، هاهم يصعدون، يتلون، ينتحبون، ثم ينغلق الباب المعدني، ويهال التراب خاتما مآساتي!

أخيرا تتحرر قدماي، وينفك خدر جسدي، يا للجنون! لابد أن يجيء الفرج في الثانية الأخيرة، تماما كالأفلام التي أدمنها، أسلوب

(جريفث للإنقاذ فى أخر لحظة) . .أسرع صاعدا، أصيح عاليا، أدق الباب المعدنى بكل قوتى . .

الرمال تزاح، البوابة تفتح، الذهول يغمر الجميع . . هناك من يسقط سابحا فى عالم أخر، ومن يحتضننى بقوة ساحقا عظامى، ومن يهلل ويكبر، ثم تتصاعد الزغاريد . . ولكن ماذا يحدث ؟ ! لم لا أبارح مكانى ؟ !

أنا هناك، أرانى بوضوح، لم أعد هنا فعلا . . حمدا لله (هانى) فى أمان، هو ليس فى خطر على الإطلاق . . ولكن إذا كنت أرانى أقف هناك، من أكون أنا إذن ؟ !

"أنت تهلوس ! !"

كانت نفسي تواصل حكمتها إلي درجة تثير الغيظ حقا، آخذة في إملائي معطيات الموقف . .

أنت هنا، والبوابة أغلقت، والرمال أهيلت، والناس انصرفوا، لم يعد ثمة مهرب، قد أزفت الآزفة، ليس لها من دون الله كاشفة !

ستظل هنا تنتظر الموت، ستظل واعيا ترتجف وتموت كل لحظة، سيكون موتا بطيئا قاسيا، وعندما يفتحون القبر بعد سنوات سيجدون آثار الرعب الهائل على وجهك، وربما وجدوك هيكلا عظميا راقدا عند الباب المعدنى، بعد أن فشلت فى الخروج، فيهزون رؤوسهم فى أسف، ويعرفون أى جريمة اقترفوا .

عند هذه النقطة كانت الصرخة الحبيسة قد تحررت أخيرا، وانطلق صداها يتردد في المكان.. ولكن ما لي أشعر بألم فظيع في صدري؟!!

***

النور يؤلم عينيَ المعتادتين على الظلام، الدم يتفجر أنهارا من صدري، هم يحملونني إلى المستشفى الميداني، الطبيب يهز رأسه أسفا.. أشعر أنني رأيت هذا المشهد من قبل.

الأيادي تمتد لتحملني من جديد، فأدرك دون الكثير من الفطنة؛ إلى أين أنا ذاهب، فاستجمع قواي، وأضغط على عضلاتي حتى تكاد تتمزق، أضربهم بكلتا يديَ، وأصرخ بملء فمي..

يا لفرحتي إنهم يسمعونني!

يتهللون، يسرعون بي إلى السيارة ذات السرينة النواحة، التي تنطلق من فورها، وما انفك قلبي مرجفا من الاحتمال المرعب..

ينزلونني من السيارة، يركضون، وقد تمنيت أن أركض معهم، فالوقت ينفد مني بسرعة..

يتكلمون، يتصايحون، يحسمون..

أرى كل شيء يتم بسرعة على غير المعتاد، غرفة العمليات تنفتح، والأطباء يهرولون، ثم أجدني في عالم أخر..

كان أخر خاطر طاف بعقلي قبلها أنني سوف أستيقظ لأجد نفسي من جديد تحت الأرض!

***

وعيي يعود إلى تدريجيا . أفتح عينى ببطء . فيؤلمهما الضوء القوى الذى يغمر المكان . . أحاول الاعتدال ، جسدى ثقيل ، أطرافى شبه ميتة . . أتأمل ما حولى ، العديد من الوجوه الباسمة تحوطنى . . ذهنى المشوش لا يستطيع بلوغ استنتاجات ، إلا أن كل شيء يبدأ فى الوضوح والانجلاء . .

إننى أتحرك ، أتكلم ، أضحك ، يبدو أن الوضع قد تغير تماما . .

لعل ما فات يكون كابوسا ، ثقيلا كابيا ، لكنه مجرد كابوس فى آخر المطاف .

التهانى وحمد الله تملأ المكان ، الكثير من الثرثرة التى أصابتنى بالصداع ، وباقات ورود عديدة ، حتى تحولت الغرفة إلى حديقة . . حديث كثير عن الإصابة الخطرة ، والمعجزة التى حدثت . . كان هناك من يلومنى على مشاركتى فى المظاهرات ، ومن يقول أننى بقوة مائة حصان ، بيد أننى كنت غير منصت ، عقلى كان يضطرم . .

أنا واثق أنه لم يكن حلما ، لقد كان واقعا عشته بكل أحاسيسى . . الرعب الوحشى ، ألم مبضع الطبيب الشرعى ، وقاطعه الكهربى وهو يشق صدرى ، رائحة العطر ، والعطن الخانق الذى ملأ أنفى عندما نزلت القبر . .

لابد أن أفهم ما حدث !مضت بى الأيام على عواهنها ، وبعد أيام لم أحصها عددا ، خرجت من المشفى أتابع حياتى ، وقد صرت كجواد السباق الذى ضيقوا مجال رؤيته ، فصرت لا أرى إلا هدفا واحدا فى الحياة ؛ أن أعرف ماذا جرى لى فى ذلك اليوم الأسود ! !

كانت قدماى تقودانى إلى الطريق الذى لم أفهم كيف عرفته. رغم أنني لم أسلكه من قبل، كأننى كنت أسير بإحساسي، لأجدنى أدق الباب..

(التربى) الأربعينى يأتينى مكفهرا، مسبل العينين، مطلقا السباب بعدما انتزعته توا من جب النوم.. أخبره أننى أريد زيارة قريب لى هنا، فينزعج، ويبرطم عن الوقت المتأخر، والأفندية المجانين.. عندها أدس في يده ورقة مالية محترمة، فيتهلل، ويفتح الباب مرحبا..

يسألنى عن اسم قريبى، فلا أعيره أذنا، وأهرع إلى الشاهد الرخامى لأجد المفاجأة المزلزلة..

(الشهيد / هانى فاروق الأقصرى)!!

تميد بى الأرض، فأكاد أسقط مغشيا علىّ.. لم يكن ما حدث كابوسا، بل كان حقيقة.. الآن أفهم لم يعاودنى كل ليلة ذات الكابوس، الذى أرانى فيه حبيس القبر؛ لأنني أرقد بالفعل فى جوف هذا القبر!

الأطباء يقولون إنها عوارض طبيعية بسبب ما مررت به، قلت لهم مرارا أننى لم أعد حيا، لكنهم كانوا مصرَين أننى محتاج إلى علاج نفسى لا أكثر.. يا لهم من سذج لا يفقهون قولا.

ألقى عليه السلام وأغادر متعجلا، تاركه يحادث نفسه عن المجنون الذى لم يقرأ حتى الفاتحة لقريبه..

كان لابد أن أتأكد. لعل الجنون يكون قد خرج من داخلي ليصبغ الواقع.. أسرعت إلى هناك، وطلبت منهم أمرا. فأخرجوا لي أخر ورقة يمكن لإنسان رؤيتها..

شهادة وفاتي!!

لم يتحمل قلبي تلك المفاجآت المتلاحقة، لا يقولن لي أحد أن بإمكانه التماسك عندما يرى شهادة وفاته بعد أن يرى قبره مباشرة، فتهاويت مطمئنا، دون أن أخاف هذه المرة أن أحمل إلى القبر حيا، لأن الصورة أمست واضحة!

بعد ذلك انعزلت عن الدنيا، ظللت حبيس أربعة جدران، أفكر فيما أنا فاعله..

أياما كانت كلها متشابهة..

ضحكت كثيرا عندما قرأت في إحدى الصحف اسمي ضمن قائمة شهداء الثورة.. أنا الآن شهيد رسميا، لم يعد هناك مثقال ذرة من شك هنا.. (شهيد).. لقب رائع، لا يمكنني أن أضعه على صدري، وإلا لخلع على الناس لقب (مجنون) بكل تأكيد!

قالت لي أمي يوما إنني أشبه الأموات، فكاد لساني ينفلت، وأقص لها ولأبي ما جرى، لكنها قاطعتني: إنك لا تأكل هذه الأيام وصرت أشبه بعود القصب، و(عدمت أمك) لو لم تأكل هذه البطة كاملة!

حمدت الله أنني لم أتكلم، فأن يخبر أحد أبوين أن ابنهما مات، فتلك ستكون بمثابة صاعقة تنزل عليهما، إما أن يقول الابن نفسه ذلك، فتلك ستكون صاعقة أشد.

وفي لحظة نادرة. وجدتني افكر بشكل مختلف. وأحس إحساسا غريبا.. كأنما لم أعد أنا. كأن روحي قد سحبت مني. لكن روحا جديدة قد حلت داخلي..

أصبحت أرى الدنيا أجمل بكثير مما رأيتها يوما. رأيت المستقبل يضحك لي مبشرا، تذكرت أحلامي التي دفنتها الأيام والسنون في جب اليأس والإحباط. طالعني في المرآة شخص لم أعهده. (هاني) جديد ممتلئ بالحماس والأمل، وجدتني أحب حياتي كما لم أفعل من قبل.. كأنني ولدت توا من جديد!

هكذا كان عليّ خوض رحلة الأهوال، التي ذكرت في الأساطير القديمة ونبوءات الأقدمين؛ وهي إقناع الجهاز الإداري والحكومي، أنني قد عدت إلى الحياة، وهي - لعمرك - رحلة تغريني بأن أعود إلى الموت لأستريح وأريح!!!

صدقا لا أدرك حتى الآن كيف استطعت أن أعود حيا في الأوراق، لقد نجحت بطريقة ما بعد جهد جهيد.. الواقع إنها كانت معجزة عسيرة على التفسير، تضاهي بناء الأهرامات!

وبعد وقت كنت فيه على حافة الجنون - أن لم أكن قد تخبطت في لجه بالفعل - تأقلمت مع حياتي، وصرت أعاود قبري بشكل منتظم، فالناس ينفضّون عنك لا محالة، ولا يبقى لك في النهاية سوى نفسك، وأنا لن أتركني وحيدا في الظلمات..

قد أكون حيا في نظر الناس جميعا، بمن فيهم الحكومة ذاتها، بيد أنني أعرف الحقيقة!

صرت أخرج أموالا كثيرة زكاة لروحي. وأخصص ميزانية مستقلة للتربي الأثير. حتى لم أعد أشك أنه غدا مليونيرا من أموالي.

***

كانت قادمة بخطواتها التي تجعلك تظنها تركل الأرض، لا تمشي عليها، ووجهها الطفولي قسيم الملامح، وخلفها خالتي بوجهها المتوعد أن يسومني سوء العذاب لو لم أصلح ما أفسدت..

أواه يا (إنجي)! أيتها الطفلة ذات الأربعة والعشرين ربيعا، قولي لي ماذا أفعل؟!!

أنا أريد أن أخبرك، ولابد حقا أن أخبرك، لكن ماذا أفعل مع أمك؟ كل ما وصلت إليه قريحتها الألمعية إنني أفعل هذا للتهرب من الزواج، وسوف تحيل حياتي جحيما لو أخبرتك، وأنت أيضا لن تصدقينني..

أنت تجلسين منتظرة أن أتكلم، والوجه المتوعد لازال متوعدا، لا مهرب منه إلا إليه..

يا للمهزلة.. الجالس أمامكم هو أحد شهداء الثورة الأبطال، بينما عليه أن يخفي هذا الأمر كأنه عار وشنار!

ولكن فيم كل هذه الحيرة؟ ألست موجودا هنا، أقف، وأمشي، وأتكلم، وأفعل كل ما يفعله الأحياء؟ فلأنس هذه الأفكار.. لقد كانت حياتنا قبرا مظلما قبل ذلك اليوم، فجاء ليُدخل إليها شعاعا من الضوء.. لم أركز على موتي هذه المرة إذن؟! لقد متنا قبل ذلك مئات المرات!!

سأقوم لأخبرك أننى كنت أمزح معك . أو إن هذا التخريف حدث بتأثير التجربة العنيفة ، التى مررت بها . أو أى هراء على هذه الشاكلة . . سأتابع حياتى كما هى على الأرض ، بينما أرقد فى سلام تحت الأرض ، لا أرى تناقضا . . أعيش حياتى ، بعدما تخلصت من خوفى ، وكل ما يعوقنى مع جسدى تحت التراب !

رنوت إلى المستقبل ، فتجسد لى جميلا ، واعدا ، وفيه الكثير من الآمال تتحقق ، فالقادم من حياتى لن يكون كمثل ما فات . . أحسست بكل القلق يذهب ، والسلام يسود داخلى . . وحتى لو لم تتحقق تلك الآمال ، يكفينى شرف المحاولة .

رسمتُ على وجهى ابتسامة بلهاء ، وبدأت فى إصلاح ما أفسدت .

نور فى النفق المظلم

لم يكن يصدق أن السعادة يمكن أن تسكن قلبه من جديد، ظن أنه لم يعد ثمة مكان فيه سوى للكآبة، والمرارة، والألم..

ظن أن الدنيا قد غلقت أبوابها دونه، وأن الحظ قد شطب اسمه من القوائم..

لكن هذا الصباح حمل له مفاجأة سارة أعادت إليه الأمل، وجعلت سرورا صبيانيا يتراقص فى صدره..

كان سهلا حتى لمن يملك عينيه، ملاحظة أنه لم يعد وحيدا فى البيت.. هناك من تسلل إلى حياته!

فحين يدخل من يعيش وحيدا مطبخه، ليجد وجبة الإفطار التى استقرت على المائدة، فلابد أن تصيبه تلك الرجفة الغامضة، ويغمغم فى قلق: ثمة شيء غير عادى يحدث هنا!

تساءل من عساه يكون قد اقتحم عليه منفاه؟ !

خمن أنه مازال في البيت ، وكاد يقوم باحثا عنه في الأركان . إلا أنه لم يفعل . . تفكر في الأمر دقائق ، ثم ابتسم . .

هو لا يملك ما يغرى اللصوص بدخول بيته . ولن يملكه مستقبلا . . ثم إنه بعد ذلك ليس خائفا منه ، ولا يشعر أنه أتى من أجل إيذائه ، بل العكس تماما !

هكذا جلس يتناول إفطاره مغتبطا ، شاكرا في سره ذلك المتسلل ، الذى لم ينس أنه يحب البيض مقليا في الصباح . .

امتدت يده تدير مفتاح الراديو على إذاعة الأغاني كما تعود ، لتسرى الأغنية :

"عايزنا نرجع زى زمان . . قول للزمان ارجع يا زمان !"

فامتعض ، وتبدل مزاجه . . تساءل عن الوغد الذى اختار أن يذيع هذه الأغنية في الصباح ، وفي هذا الصباح تحديداً ؟ !

قرأ يوما كلمات لأديب تقول : نحن نحب الماضي لأنه مضى ، ولو عاد لكرهناه !

الحقيقة أنه يكره الماضي ، ويكره الحاضر ، والمستقبل أيضا . .

تراصت أمامه الأرقام ، تحسب الأيام والشهور . . يا الله . . لم تمض إلا سنوات قليلة ، بدت له كأنها سنوات طويلة ، أو عقود عديدة ، وربما قرون !منذ سنوات قليلة كان شابا غضا ، ممتلئا طاقة واندفاعا ، وإقبالا على الحياة . . شابا لم يتجاوز العشرين إلا ببضعة أشهر . .

منذ سنوات قليلة كان ثائرا . . كان دائما في مقدمة الصفوف . لا يهاب الرصاص الذى يطيش حوله . لا يهاب الموت . وهو يرى زملاءه يتساقطون حوله كثرا ، بل كان يسعى إليه . .

أيام طويلة ، قاسية ، بلا نوم تقريبا ، والبرد يهبط شديد الوطء بلون يناير ، وينفذ إلى عظامه مباشرة . .

قلبه جمرة متقدة ، والأحلام تلوح أمام عينيه ، أحلام أن تصبح بلده أجمل بلاد الدنيا . . وخياله يصور له أنه يشارك في إعادة تشكيل العالم ، وكتابة المستقبل بمداد جديد ، فيملؤه حماس جنونى تهون معه الحياة . .

إلا أن الطلقة التى كان يتوقعها فى صدره ، صوبت بمهارة لتستقر فى عينه اليمنى . . وتحول العالم بالنسبة له إلى عين يسرى !

فى البداية اغتمَ ، وأصابه الاكتئاب ، بيد أنه تجاوز كل ذلك بسرعة مذهلة ، وعاد ليكمل مهمته فى ميدان (التحرير) ، دون أن يتردد ثانية واحدة ، وقد أعمته الحماسة عن التفكير فى الاحتمال المرعب . . الاحتمال الذى ظنه بعيدا ، ويحدث للآخرين فقط !

فكانت الطلقة الثانية ، التى صوبت بيد محترفة ، لتستقر فى عينه اليسرى !

انهار مصعوقا ، وفاء إلى الواقع ، بعد أن نزل عليه الظلام بحرملته الحالكة السواد . . تحسس عينيه بيد مرتجفة ، لا يصدق أنه أصبح كفيفا بالفعل . .

ويلاه . . أهذا حقيقى فعلا ؟ !

وكم من مرة دخل إلى فراشه لينام، آملا أنه سيستيقظ وقد شفي، فالنوم هو العلاج لأي مرض، هكذا كان يفكر وهو بعد صغير، لكنه كان يصعق كلما هب من فراشه، ووجد الظلام مازال يرخي سدوله على عينيه!

كان قد بات شهيرا في ذلك الحين، بعد أن ذاعت قصته، وصار الجميع يتناقلونها، ويحكون لبعضهم في إعجاب، عن البطل الذى ضحى بعينيه من أجل الوطن!

شهور عديدة مرت عليه وهو حديث الساعة..

يوما ما التقطوا له صورة، وهو يضع عصابة على عينه اليمنى بتاريخ أصابتها، وأخرى على عينه اليسرى بتاريخ إصابتها، وصارت تلك الصورة أيقونة للثورة، تستخدمها الصحف، ومواقع الانترنت، وبرامج التلفاز..

تهافتت على استضافته كل القنوات الفضائية، كتب عنه كل الصحفيين، وأصبح ملء السمع والبصر..

وجد السلوى، وأحس بالسعادة، وبدأ يتفاءل من جديد.. فكر أنهم سيضعون اسمه في الكتب التي تدرس للتلاميذ، بجوار الأبطال الكبار، وأن الأطفال سيكبرون وهم يرونه مثلا أعلى لهم، ويتمنون أن يصيروا مثله.

لم يصدق عندما أخبروه بنبأ سفره إلى الخارج.. طار من الفرح، رقص قلبه طربا، وترددت ضحكاته بين الضلوع..

ها هي الدنيا تصالحه، وتعطيه أجمل ما فيها، بعد أن أعطته أسوأ ما فيها..

و بدأ يمنى نفسه باستعادة بصره أيضا !

"كم كان الأمر جميلا كالحلم" !

تبسم مستعيدا تلك الأيام..

وبعد محاولات مضنية، وجراحات عديدة، مات الأمل، وأعلن الأطباء فشلهم مع عينه اليمنى، وإن نجحوا في إعادة شعاع من الضوء إلى عينه اليسرى.. شعاع رفيع لا يبدد الظلام، إنما يجعله يرى الناس أشباحا بلا ملامح، والموجودات كتلا يرسم الضوء ملامحها الخارجية فقط.

يومها فرح، فرحة مليئة بالمرارة وخيبة الأمل.. قال في نفسه:

– هذا أفضل من العمى الكامل على كل حال.

واليوم هو يتساءل:

– هل كان ذلك أفضل من العمى الكامل بالفعل؟!

ولما عاد، وجد الكثيرين في انتظاره في المطار.. حملوه فوق أعناقهم، واحتفلوا به، وواسوه في رحلته الفاشلة إلا قليلا..

شعر أنه يطير فوق السحاب، وكان لا يزال حديث الناس، ومصدر إعجابهم وفخرهم.. إلا أن الأمور ادلهمّت بسرعة مخيفة، والمواجع تكاثرت، وتكالبت عليه..

وبدأ يحيا واقعا الكابوس الذى كان يؤرقه طوال عمره..

أصبح وحده تماما!!

أمه ماتت وهى حزينة على حاله..

أخته تزوجت فى أخر فرصة، هربا من العنوسة، ولم يعد يربطه بها غير زيارة أسبوعية لإعداد طعامه. تباعدت كثيرا فيما بعد حتى صارت شهرية، ولا تزال تتباعد..

فتاته الغريرة، وخطيبته التحقت بالراحلين..

هى التى كانت معجبة بشهرته، وكانت الدنيا لا تسعها فرحا، عندما تسير إلى جواره فيعرفه الناس، ويستوقفونه لالتقاط صورة معه.. لكنها أدركت أنه لن يبقى نجم الساعة إلى الأبد، فتركته هاربة من الجحيم الذى أدركت أنها ستحياه معه..

انتهى اهتمام الإعلام به، بعد أن حقق رجاله المراد منه، وأدركوا أنه لم يعد كما كان، دجاجة تبيض ذهبا، يحققون من خلاله معدلات مشاهدة مرتفعة، وتنهال عليهم الإعلانات..

الناس فتر اهتمامهم به، نسوه، بل ونسوا الثورة الأولى والثانية، وغرقوا فى مستنقعات حياتهم ومشاكلهم.. صاروا يسيرون إلى جواره فلا يعرفونه، ثم يتجاوزونه دون أن يشعروا بعذاباته..

وجد نفسه وحيدا يواجه الحياة المسربلة بالسواد، كمصيره الأسود.. كره نفسه، وكره الناس، وكره الحياة.

لعن اللحظات التى جرفته فيها حماسته، والحلم الذى حلمه، وشهر يناير ببرودته وقسوته.. تمنى لو عادت تلك الأيام ليجلس فى منزله مرتاحا، ويدع الأحلام لدراويشها ومريديها، الذين لا يملّون وهم يلاحقونها دوما، ولا يطالونها، ويدع من أراد البطولة مكانه لينالها راضيا!

كان يعذبه قدوم الليل . . عندما تغرب الشمس ؛ فتملأ صدره كآبة، ويخفت شعاع الضوء في عينه اليسرى، ويعود كفيفا من جديد .

أمر شرح له الأطباء مرارا سببه، ولم يفهمه قط . .

الألم وهو يرى النوافذ تقفل، والستائر تسدل، والأبواب الحديدية تغلق . . الإحساس بالعجز والضعف، ومخاوف الطفولة التي تهاجمه بضراوة . . يحس بالعفاريت تدور حوله وتتحسسه . . يتسمع مذعوراً إلى فحيح الكائنات البشعة، ويشعر بلهاث أنفاسها على جانب عنقه . . يتخيل أن (العاو) ، و (أبو رجل مسلوخة) ، و (أمنا الغولة) ، ومصاصي الدماء، والمذؤوبين، والزومبي، كل هؤلاء قد تجمعوا في الصالة استعدادا لالتهامه !

وقتها يود لو يهرول كطفل صغير، ويختبئ في حضن أمه، ليبكي ويرتجف، ثم يجذبها لتجلس على طرف سريره، حتى يطمئن إنها تحميه منهم، وينام . .

لكن أين الأمهات عندما نحتاجهن ؟ !

على هذا الحال كان النوم يطير من عينيه كل ليلة، ولا يداعب النوم جفونه إلا عندما يتسلل ضوء النهار، الذى يعيد الضوء الخافت إلى عينه، ويعيد له الاطمئنان الذى يجعله ينام . .

لكن كان هناك ما هو أسوأ من عذاب الليل ؛ عذاب النهار .

حاول كثيرا أن يعمل، لكن من كان ليقبل مثله ؟ ! حتى رجل الأعمال الشهير الذى ظهر معه يوما فى التلفاز، وأعلن أن لديه

وظيفة براتب كبير من أجله، وقال الكثير من الكلام الرنان على شاكلة: مكافأة البطل على ما قام به من أجل الوطن.

وبعد الصور الباسمة البلهاء، ذهب إليه ليكتشف الخدعة، هو لم يرد إلا استغلاله في الدعاية لنفسه ومشروعاته.

لم يعد أمامه ليحيا ويقيم أوده إلا معاش المصابين الذى يمنحونه إياه، والأموال القليلة التى تعطيها له أخته من زوجها.. لكن الحياة قاسية فعلا، وأطفالها يكبرون، وأموال المعاش لم تعد تكفى احتياجاته.

"يبدو أن التسول صار أمرا محتوما".

تمتم في سخرية..

ولم يكن هذا كل شيء..

فقد أخبره الأطباء يوما أن بصره - الضعيف من الأصل - سوف يضعف شيئا فشيئا، حتى تعود عينه اليسرى إلى حالتها الأولى من العمى، وذلك أمر محتم لا يمكن تجنبه!!

كانت الثلاثين لا تزال على مرمى بصره، إلا انه كان يشعر كما لو أنه في السبعين أو الثمانين..

وكأبطال الأساطير اليونانية، الذين حكم عليهم أن يعيشوا في عذاب مقيم، كان عليه أن يجلس متأملا الساعة الرملية المتناقصة، منتظرا اللحظة التى سوف تهوى فيها المقصلة على عنقه.

***

مد يده إلى المفتاح مسكتا الراديو، وموقفا سيل الذكريات المُمِضّة، القاسية..

كان يريد أن يتمتع بذلك الوقت النادر من السعادة. المنتزع من الأبدية..

أنهى إفطاره منتعشا، ثم ارتدى ملابسه، بعد أن شعر برغبة شديدة في الخروج، وهو الذى لم يطأ الشارع منذ أسبوع.. التقط عصاه الأثيرة، وانطلق..

***

كان دوما يمشي متمهلا، ملتزما حيد الطريق، فمن يملك عينيه لا يطمع في الكثير.. أما اليوم فقد كسر كل القواعد!

مشى في وسط الطريق، أسرع من خطواته، حتى كاد يجرى، دون أن يخاف من أى شيء، فقد كان يشعر به..

يحس حرارة جسده، يسمع وقع أقدامه وهو يسير جواره، ويشعر أصابعه وهو يمسك بيده مرشدا..

كم أحب ذلك الغريب الجميل دون أن يراه.

كانت الأشباح لا تزال أشباحا في عينيه، والكتل الصماء لا تزال على حالها، لكنه شعر أنه يرى كل شيء أروع وأجمل!

السماء أكثر رحابة وصفاء، والشمس أكثر لمعانا، والنساء كلهن صرن حوريات حسانا، والحدائق صارت جنانا حقيقية، وزمهرير (طوبة) تحول إلى ربيع، وضجيج السيارات أمسى معزوفة رائعة!

ملكته اللحظة، فرفع عقيرته، ومشى يغنى نشازا بصوت مرتفع:

- يا عيني يا قلبي جرى إيه؟! الدنيا أحلوت كده ليه؟! يا أصحابي يا أهلي يا جيراني أنا عايز اخدكو في أحضاني.

دون أن يفكر فى نظرات الناس المستنكرة. المتسائلة عن ذلك المجنون.

وبعد جولة طويلة عاد.. صعد الدرج بخفة، وهو يشعر بالنشاط والحيوية، ليجد البيت وقد مسته يد التنظيم لأول مرة منذ وقت طويل..

تشمم رائحة النظافة، ورائحة أخرى كانت تأتى من المطبخ. فذهب مستطلعا، ليجد المائدة معدة.. اندهش.. كيف عرف الغريب المتسلل أنه يحب (الكوارع)؟! وكيف عرف أنه اشتاقها اليوم بالذات؟!

شكره هذه المرة بصوت عال، وجلس يلوك الطعام فى سرور..

لم تكن المفاجآت قد انتهت بعد، فبعد أن أنهى غداءه، لاحظ كومة من الأوراق على المنضدة الكبيرة، فألقى نظرة، لم يكن نظره يسمح له بالقراءة، إلا أنه عرف من الصور إنها كل المقالات التى نشرت عنه، أيام كان ملء السمع والبصر.

بجانبها عدد من أقراص الكمبيوتر، عرف فيما بعد إنها تحوى كل لقاء تلفزيونى ظهر فيه.. كانت هناك أيضا صور الميدان التى مزقها فى ساعة غضب ويأس، وقد عادت سليمة كما هى.

وعندما رفع رأسه وجد على الحائط صورة كبيرة؛ لم تكن هناك من قبل، تظهره والناس ترفعه على الأعناق يوم عودته من الخارج، بعد إجراء الجراحات فى عينيه.

تمدد على الأريكة. وقد انهمك فكره في محاولة تصور كينونة ذلك الغريب المتسلل..

تساءل، من هو؟! ومن أين له بكل تلك القدرات العجيبة؟! ولم اختاره هو دون غيره ليكون بجانبه؟!

تمنى لو ظهر أمامه بهيئته، وجاء ليجلس معه.. تمنى لو سأله تلك الأسئلة، لو تكلما، وتضاحكا، وتبادلا الشكوى..

كانت اللذة تدغدغه، وتملأ قلبه دفئا، لذة وجود إنسان بجانبه.. مضى وقت طويل منذ نعم بالأنس، والصحبة.. وكان بحاجة ماسة إليه في حياته التي تحولت إلى صحراء شاسعة بلا ينابيع.

كلم الغريب بصوت عال، ناداه، وانتظر طويلا.. لكن لم يحدث شيء..

ورغم شعوره بالضيق، فقد أقنع نفسه ألا يكون عجولا، وأن ينتظره ليظهر من تلقاء نفسه.. ويكفيه الآن أنه هنا، بجانبه.

يوما ما سيظهر له، هو واثق من ذلك.. فقط عندما يعتاده.

"نعم عندما يعتادني"!

قالها لنفسه.. ثم خاطب الغريب بصوت مرتفع:

- خذ راحتك يا صديقي.. البيت بيتك.

***

وعندما اندس في فراشه تلك الليلة، كان مطمئنا سعيدا، وهو يشعر به جالسا عند قدميه، كما كانت أمه تفعل..

لم يذعر عندما همس الصوت الرقيق فى أذنه :

- تصبح على خير أيها البطل .

لم يعد يخاف شيئا ، بعد أن ذاق حلاوة الاهتمام، والتقدير . والطمأنينة . .

كان يعرف أن اليوم يقترب، يوم ستنغلق فيه عينه اليسرى كقرينتها الأخرى، وتتحول حياته إلى نفق طويل مظلم، سيظل ينتظر النور فى نهايته ، مع أنه يعلم يقينا أن النفق لا نهاية له إلا القبر ، وأن النور لن يأتى أبدا .

لكنه لم يعد خائفا حتى من ذلك اليوم، لأنه هنا يحميه ويرعاه . .ولأول مرة منذ زمن بعيد ، انزلق على الفور فى عالم الأحلام السحرى .

أنا وأبى

ترى هل سأستيقظ من نومى ذات يوم لأجدنى فى بيتى القديم، وأكتشف أن حياتى كلها لم تكن إلا حلما شاهدته، بينما أنا مازلت تلك الطفلة الصغيرة التى تلهو بدميتها ؟

سؤال يراودنى كثيرا منذ ذلك اليوم..

اليوم الذى مهما نسيت من أيام، لا يمكننى أن أنساه.

كنت أحب كثيرا أن أذهب إلى صديقتى الحميمة (ريهام)، لأرى التوأمين الحبيبين (أحمد) و(سعيد) المتعثرين فى خطواتهما الأولى، والأهم لأرى (ياسمين) الصغيرة.. (ياسمين) بضحكتها الصاخبة، بثرثرتها المحببة، بخيالها الجامح الذى لا يعرف حدا، بشقاوتها الممتعة، ببراءتها ونقائها، وبهجة الدنيا كلها التى تحملها معها..

بيد أن زيارة هذه المرة كانت مختلفة.

فالبيت السعيد لم يعد كذلك.. قد ساده الصمت منذ أن وقف (عادل) يتأنق طويلا أمام المرآة، وكأنها المرة الأولى التي يرتدى فيها بزته الرسمية، بعدما تخرج من كلية الشرطة.. ثم خرج ولم يعد.

و(ريهام) قد صارت أقرب إلى الميتة.. مستكينة، قليلة الكلام، يؤلمها وقع كلماتهم في أذنها؛ عن الثورة، والسجون التى هاجمها المجرمون ليحرروا زملاءهم، وجائزة الشهداء، وأجر الصابرين.

لكنها تتحسن، وتردد دائما: قدَر الله وما شاء فعل.

و(ياسمين) الجميلة قد كفّت عن الضحك، وعن الكلام، وعن اللعب بالأورج الصغير.. ملأ الحزن وجهها الملائكى، وأمست الدموع وعيناها لا يفترقان..

كنت أحاول ملاعبتها ودفعها للحديث، عندما سألتني السؤال الذى كنت أخشاه:

- طنط.. هو بابا هيرجع امتى؟

تبادلت مع أمها نظرة حيرى، وأنا العارفة أنها عانت كثيرا من هذا السؤال الموجع، ولم أحر جوابا..

- أنا عارفة انه زعلان منى عشان ضربت (أحمد)، وهو قال لي ما تعمليش كدا، وعارفة انه زعلان منى عشان لعبت فى الورق بتاعه وطيرته من الشباك، وعشان كلت كتير من الشيكولاته اللى حطها فوق التلاجة، وكمان عشان جبت درجات وحشة فى الامتحانات!

وخنقت الدموع كلماتها وهى تكمل:

- أنا باكلمه كتير على المحمول بتاعه، وهو مش بيرضى يرد عليا.. بس أنا نفسي يرجع وأنا مش هاعمل كدا تاني، مش هاعمل حاجة تزعله تاني!

وراحت تبكي، فاحتويتها في حضني، وأنا أكاد أبكي معها.. بينما كنت أفكر في الكلمات المعتادة..

- وحشني قوي قوي.. نفسي يرجع بقي.. نفسي أوريه الرسمة اللي رسمتهاله، نفسي يرجع يلعب معايا، ويجيب لي الفستان الأحمر اللي وعدني يجيبهولي، وياخدني على السطح ويخليني أطير.. كل ما جرس الباب يرن أجري عليه وأقول أكيد هو، بس مش يطلع هو!

وكان لابد مما ليس منه بد..

قلت لها وأنا أتجنب النظر في عينيها:

- بابا راح عند ربنا يا حبيبتي.. هو دلوقتي مع الشهدا في السما!

كنت أعرف أن تلك الكلمات لن تسكت وجيب قلبها الصغير، المشتاق لأبيها؛ لأنه كانت هناك طفلة صغيرة، ذهب أبوها إلى الحرب في أكتوبر من عام ١٩٧٣، ولم يعد!

جاءتها أمها يوما، وقالت لها في تأثر:

- بصي يا حبيبتي اسمعيني، وافهمي كلامي كويس.. بابا مش هيرجع، بابا مات، وراح عند ربنا، هو دلوقتي قاعد مع الشهدا في السما!!

لكن الطفلة بعد أن بكت كثيرا، وغاصت فى خيالها البريء محاولة تخيل ربنا، والمكان الذى يجلس فيه أبوها فى السماء. نسيت كل شيء وبدأت تسأل الكبار بإلحاح:

- هو بابا هيرجع امتى؟!

ظل قلبها يهفو إلى أبيها، وكلما دق جرس الباب جرت إليه، وهى واثقة أنه جاء، حاملا معه الفستان الأحمر الذى وعدها أن يشتريه لها من أجل العيد..

مشتاقة لاحتضانه، والتعلق برقبته كعادتها.. مشتاقة لأن يحكى لها الحكايات، ويلعب معها.. مشتاقة لأن يأخذ بيدها الصغيرة، ويصعد بها إلى سطح البيت ليجعلها تطير مثل العصافير، كما فعل من قبل..

لكنه لا يأتى أبدا، وهى لا تكف عن التفكير أن الباب سينفتح يوما، ويدخل عليها مبتسما، حتى بعد أن مرت أربعون عاما، مازالت تفكر أنه القادم كلما دق جرس الباب.

هذه الطفلة هى.. أنا!

الأحداث تكرر نفسها بدقة غريبة، حتى تكاد تكون متماثلة..

كأننى عدت إلى الماضى، وأنظر إلى نفسى عندما كنت صغيرة،

يبدو أن (هيراقليطس) جانبه الصواب عندما قال: إنك لا تنزل النهر ذاته مرتين.

***

كنت أتأمل زوجى وأولادي، كأننى أراهم للمرة الأولى..

كأنني أدرك لأول مرة أنني كبرت، وصرت أما، ولم أعد تلك الطفلة الساذجة التى تنتظر عودة أبيها.

إحساس مؤلم للغاية؛ أن يملأ الحزن قلبك ويغزوه الخوف، فتتلفت حولك باحثا عن الكبار، تريد أن تجرى وتلتصق بهم، ليمنحوك الدفء والأمان والحنان، لكنك تدرك أن قلبك الطفل قد أغفلك عن إدراك الحقيقة القاسية المؤلمة..

حقيقة أنك صرت من الكبار الذين عليهم أن يمنحوا الدفء والأمان للآخرين، لا أن يتلقوه!

لكننى مازلت طفلة، وأفتقد أبى.. أفتقده بشدة!

كم أتمنى لو عدت يا أبتاه.

***

وكأنه قد سمع ندائى في تلك الليلة.

كان الليل قد جنّ، والفجر قد اقترب.. وكنت بين الوسن والنوم عندما دق جرس الباب، فأيقظنى من سباتى.

قمت مسرعة، دون أن أنتبه في البداية أن رجليَّ قد قصرتا، وجسدى قد انكمش، وأننى قد عدت إلى بيتنا القديم.

كنت أجرى كالمسحورة، وأنا أهتف:

- بابا جه.. بابا جه.. بابا جه!!

وكان هو بالفعل..

بابتسامته العذبة، وعينيه الحزينتين، وظهره المنحنى من ثقل الدنيا على كاهليه..

أتى حاملا الفستان الأحمر الموعود . .

غصت في أحضانه فرحة، وتعلقت برقبته، وأنا أقبله بشوق شديد . . وهناك كانت أمي جالسة تتأملنا بابتسامة، ترى متى عادت شابة من جديد ؟ !

ارتديت الفستان وأنا أطير فرحا، بينما أتأمل نفسى فى المرآة . .

جلس يلاعبنى، ويحكى لى القصص التى اعتاد أن يحكيها لى . . ورغم أننى كنت أحفظها، إلا أننى كنت أستمع إليه بشغف، كأنما أسمعها للمرة الأولى . .

لم أنشغل بالتفكير، أكان ذلك حقيقة أم خيالا . . بل وجدتنى أعيش اللحظة بكل جمالها وفرحتها . .

كنت مشتاقة إلى أن أطير، فأخذت يده، وجذبته ليصعد معى إلى السطح، الذى كان نظيفا على غير العادة، وأشعة الشمس اللطيفة تغمره . .

قال لى أن أمسك يديه جيدا، وأن أغمض عينى . .

كنت متحمسة، وقد تسارعت أنفاسي، ودقات قلبى . . كأننى أفعل هذا للمرة الأولى، وكلى أحاسيس طفلة . .

سألنى بابتسامة :

- جاهزة ؟

فأومأت برأسي فى حماس، وفعلت كما قال .

ثم طرت .

جسدى أصبح خفيفا جدا . . وجدتنى أرتفع شيئا فشيئا . . لم تعد

الأرض تجذبني. لم يعد شيء يثقلني أو يعوق تحليقي. بعد أن تحولت إلى عصفورة.

تعالت ضحكاتي الفرحة. وأنا أرى كل شيء بوضوح دون أن أفتح عيني.. أخذت أعبر فوق السحاب. وأسابق أسراب الطيور. وأمر جوار الطائرات ملوحة لركابها كما يفعلون في الرسوم المتحركة، وأقترب من الشمس دون أن أخاف مصير (ايكاروس)، وأشاهد بيتنا صغيرا جدا من بعيد، وفجأة فتحت عيني. وتلفت حولي، فوجدت أبي وقد اختفى..

أصابني الفزع، شعرت أنني لم أعد قادرة على الطيران، بعدما تركني وذهب، وجدتني أسقط.. صرخت في رعب شديد، وأنا أقترب من سطح بيتنا بسرعة كبيرة.. وفي اللحظة التي أوشكت فيها أن أصطدم بالسطح، وجدتني أقع بين أحضانه، وابتسامته الجميلة تملأ روحي، وهو يدغدغ أنفي بأنفه ملاعبا.

***

وفي الصباح كانت كمية الضوء التي تغمر الغرفة أكثر من باقي الأيام، وكنت أشعر بسعادة كبيرة تغريني بالرقاد، ونسيان الدنيا بكل ما فيها..بيد أن تأخري في الاستيقاظ على غير عادتي، والواجبات الملقاة على عاتقي؛ دفعتني إلى النهوض بسرعة، في نفس اللحظة التي دق فيها جرس الهاتف، ليأتيني صوت حبيبتي (ياسمين) كما اعتدته؛ فرحا، متحمسا، متلاحق الكلمات..

كانت تحكى لى بسعادة غامرة عن أبيها ، الذى أتى ليلة أمس . .
ولم يفتنى وأنا أسمعها ،أن ألاحظ الفستان الأحمر الصغير ، المعلق
على المشجب هناك .

حبيبى

كانت لا تفتأ تقول لهم أنها ليست كما يظنون.. لم تختل موازينها بعد، ولم يمس عقلها وهن..

تُقسم لهم أن ما تخبرهم به يحدث بالفعل، لكنهم لا يصدقون..

يحدثونها عن ضرورة النسيان، وأهمية استمرار الحياة رغم الآلام، فيجنَ جنونها..

تسألهم فى استنكار:

- أنساه؟!

وتتحير كيف تشرح لهم استحالة ذلك..

هذا أمر لن يدركه إلا هى.. كل ذلك الحب، كل تلك الذكريات الجميلة، كل ذلك الحنان.. كلها أمور ضد النسيان..

اشتياقها له. واحتياجها إليه.. حضوره الذى مازال يملأ روحها. وكأنه لم يفارقها إلا منذ قليل.. بصماته التى تركها على قلبها، وصورته التى تلاحقها أنى ذهبت، وتراها فى وجوه كل الرجال.

كان لها المعنى الوحيد لكلمة رجل.. حبيبها، ودنياها، وكل المعانى الجميلة فى الحياة، عندما تتجسد فى إنسان واحد.. قصة حبها الرائعة. التى استمرت سنوات، وصاحبت أحلام مراهقتها، وأمنيات نضجها، ولما كللت بالزواج، لم يدم هذا الأخير أكثر من شهور قليلة!

عندما هاتفها فى ذلك اليوم الأسود، قال لها إنه ليس فى الجامعة، بل فى مكان آخر تماما!

لم يكن مدرس التاريخ الشاب ليضيع فرصة أن يعيش أحداثا سيدرسها لطلبته فيما بعد..

فى البدء رفضت بإصرار أن تصدق الخبر الصاعق. الذى انخلع له قلبها.. تساءلت: أهذا أخر عهدى به؟! أحقا هو الآن يرقد فاقدا للحياة في حفرة بباطن الأرض؟!

ثارت: مالنا ومال الثورة؟! هل نحن من سيصلح ما اعوج فى الكون؟! لقد كانت الشوارع تعج بالناس. لم انتقوه هو بالذات؟! لم لم يقتلوا غيره؟! لم لم يمت كل الآخرين ويبقى هو؟!

***

كان الأب المكلوم فى ابنته يشرح لها - كأنما لا تزال طفلة فى التاسعة - إن الموتى لا يتصلون بالأحياء عبر الهاتف المحمول يا بنيتى!

وتصر هى على ما تقول . وتحكى القصة من جديد . .

كانت تمسك بهاتفها كل ليلة . لتقرأ رسائله للمرة الألف . وتملأ الدموع عينيها . وهى ترى رقمه على شاشة الهاتف . .

ورغم أنها تعلم أنه لن يتصل بعد ذلك أبدا . فإنها لم تستطع قط أن تمحوه . .

فى بعض الأحيان كان شوقها إليه يشتد . وتتمنى لو فقط تسمع صوته . . فيرتج عليها الأمر ، وتفكر أنه سافر ، ولم يمت ، فتضغط زر الاتصال . بيد أن المرأة القميئة تذكرها أن هذا الهاتف لم يعد متاحا ، وتعيدها بقسوة إلى الواقع .

حتى كان يوما عرفت فيه الطريقة الفعالة . .

تهمس بإسمه ، تناديه فى وله باسم التدليل الذى كان يحبه ، ثم تنتظر فى صبر وهى تتأمل الشاشة الساكنة . ولا يمر وقت حتى يرتفع رنين الهاتف ، وتضيء الشاشة باسمه . .

فى المرة الأولى لم تصدق نفسها وهى تراه يهاتفها من العالم الآخر . صعقت وأغشى عليها . لكنها صارت تنتظر تلك المكالمة كل يوم . .

صوته الحالم ينساب رقيقا ، دافئا ، مليئا بالحنان . . يدللها كما اعتاد دوما ، يهمس لها بحبه ، واشتياقه إلى أجمل امرأة فى الدنيا . . يعتذر لها عن كل مرة ضايقها فيها ، وعن كل لحظة لم يكن فيها إلى جانبها .

لم تكن تتركه يكمل بقية حديثه أبدا . فبمجرد أن تسمع كلماته العذبة ، تبدأ دموعها فى الإعلان عن نفسها ، فتبكى حزنا ، وفرحا ، وحبا ، وشوقا . .

دموع فيها لقاؤهما الأول، الذى رأته فيه أسمج إنسان فى التاريخ، قبل أن تغير رأيها تماما، دموع فيها دفء وجوده إلى جوارها، فيها قبلاته ونظراته وكلماته، فيها كل بيت شعر ركيك كتبه تغزلا فيها، فيها قلباهما اللذان امتزجا، وصارا قلبا واحدا.

دموع فيها خاتمه، الذى لم تخلعه، وأقسمت ألا تفعل أبدا.

وعندما تنتهى المكالمة، إنها فقط تستطيع أن تندس فى فراشها، وتحتضن الهاتف المحمول، وقد راقصت السعادة شفتيها، وطارت روحها فوق السحاب، فتنام ملء جفونها.

***

كان الأب بعد أن يستمع إليها، يمسك الهاتف فى يأس، ويخبرها أنه لم يسجل أية مكالمة مستلمة من رقمه منذ زمن، فترد فى تذاك أنه ربما يكون ذلك بسبب عيب فى الهاتف، أو ربما يكون بسبب أنه يحادثها من العالم الآخر، الذى من البديهى أن قواعده تختلف عن قواعد عالمنا، فلا يسجل الهاتف أية أرقام!

وقتها لا يجد الأب البائس بدا من أن يصمت، بعد أن يحوقل ويستغفر الله.

***

كانوا يستيقظون فى بعض الأيام، فلا يجدونها..

يسألونها إلى أين تذهب فى الصباح الباكر؟!

فتحكى لهم أنها فى تلك الأيام، تستيقظ لتجد نفسها فى ذلك العالم؛ عالم سحرى ليس كعالمنا، كأنها (آليس) فى أرض

العجائب .. عالم تذهب إليه كل الأشياء الجميلة التى ضاعت من حياتنا .

تستيقظ لتجد حياة كاملة قد ضاعت منها ! !

تجد الصفاء، والسعادة التى لم تعد تشعرها، والإقبال على الحياة، الذى كان قد تحول إدبارا ..

كل شيء هناك !

ألعابها القديمة وعرائسها .. أول خطاب حب كتبه لها حبيب عمرها .. فستانها الأحمر القديم الذى تمزق بسبب مسمار غادر، ورمته أمها مع أشياء كثيرة، وكانت تشعر عندما ترتديه إنها (سندريلا) .. المصحف الصغير الذى أهداه لها أبوها فى عيد ميلادها، ولم تعرف أين ذهب .. مشهد النيل اللطيف الذى يبعث فى نفسها أجمل الخواطر، تراه من الشرفة بعد أن كانت البنايات العالية قد حجبته .. قطها الحبيب (مشمش) الذى حزنت كثيرا وهى صغيرة عندما مات، هاهو يتمسح فى قدميها .. عصفوراها الجميلان وقد عادا إلى القفص بعد أن طارا ذات صباح إلى الفضاء الواسع ! !

تجلس على أرجوحتها القديمة، التى كان أبوها قد باعها يوما وسط دموعها، فتغمرها موجة دافئة من الذكريات، وتشعر إنها طفلة صغيرة، وتستعيد كل لحظات الفرح التى عاشتها وهى تجلس عليها .

تتأمل نفسها فى المرآة، فتجد شعرها الذى كان يتساقط بكثافة، وقد عاد كما كان، ووجهها الذى غزته التجاعيد مبكرا، استرجع نضارته، والابتسامة الجميلة التى فارقتها، عادت لتملأ محياها !

لا تفكر كثيرا عندما تلج ذلك العالم. فهي سرعان ما تنتقى أجمل ثوب تجده في دولاب ملابسها، وتخرج.

تجد نفسها تسير في شوارع جميلة، خالية تماما من الناس.. نسائم الهواء اللطيفة تملأ صدرها، وتلثم وجهها في رقة رغم إنه شهر (أغسطس).. الورود تعقد خصيصا لها مهرجان الألوان المبهر، الذى اعتادت أن تعقده في الربيع .. السحب ترسم لها أجمل اللوحات.. زخات المطر الخفيف تصنع لها أروع صور قوس قزح الذى تعشقه.

يفتنها كل ذلك الجمال الذى تراه، فتشعر كأنها ستفرد جناحيها وتطير.

تحث الخطى إلى هناك، فهي تحفظ الطريق، حتى في ذلك العالم المختلف، لتجده هناك؛ أهم ما ضاع منها.

وحده.. جالسا في الحديقة، في نفس المكان الذى التقيا فيه مرارا، ونفس المكان الذى كان يحلو له أن يجلس فيه، ليكتب أشعاره الرديئة، معللا لها أن المكان يحمل رائحتها، وروحها الجميلة..

هكذا يتلاقى الفريقان، وتسيل أنهار الحب، فينصرف (كيوبيد) من المكان غاضبا، بعدما أدرك أنه ليس ثمة عمل له هنا!

يمر الوقت وهي لا تشعر به، وقد تشابكت أيديهما، وطفقا يبثان أشواقهما وغرامهما..

إلا أن روح (سندريلا) تحوم حولها، فسرعان ما يدق هاتفها المحمول حاملا الوعيد.. والدها القلق يتصل ليسألها أين هي،

ويأمرها أن تعود حالا إلى البيت . دون أن تعرف كيف يتمكن من الاتصال بها في هذا العالم !

فتضطر أن تتركه ، تودعه بدموعها على أمل لقاء قريب . وتدعو الله أن يجمع شملهما في عالم واحد من جديد .

يقول لها مبتسما :

- لا تتعجلي الأقدار ، مصيرنا إلى لقاء في النهاية ، وإن طال بنا الزمن .

***

يضرب الجميع أكفهم بعد أن تنتهي من الحكاية . وتنحدر دمعات ساخنة من الأم الحزينة على ما آل إليه حال ابنتها . .

لكن الأخيرة تتركهم سريعا ، وتهرع إلى غرفتها . لتجلس وحدها تسترجع كل كلمة قالها ، وكل كلمة قالتها ، كل همسة همسها ، وكل همسة همستها . .

تغمرها النشوة ، فتحتضن الوسادة ، وتدور راقصة في أنحاء الغرفة ، ثم ترتمي على السرير ، وتتيه في عالمها السعيد . .

كانت تعرف أنهم يفكرون في الذهاب بها إلى ذلك المكان المرعب ، الذي رأت في التلفاز ما يجري فيه . . وهناك سيقيدونها ، ويوصلون أقطابا إلى جسدها ، ويصعقونها بالكهرباء ، ثم يضعونها في غرفة من الكاوتشوك ، ويسميها الناس (مجنونة) !

بيد أنها لم تكن لتأبه لأي شيء ، إنها في قمة سعادتها ، فماذا يهمها بعد في الدنيا ؟ !

***

كانوا قد سهروا إلى قرب الفجر، يناقشون الأمر الذى قرّ قرارهم عليه. لم يكن الأمر سهلا عليهم، إلا أن الوضع كان قد بلغ مرحلة شديدة الخطورة، فكان لابد مما ليس منه بد.

تواعدوا أن يكون الغد، بل اليوم هو الموعد للتنفيذ..

تنهدت الأم بمرارة، وشرد ذهنها طويلا، قبل أن تقوم وتدخل على ابنتها بهدوء. لتجدها نائمة بعمق. وابتسامة كبيرة تعلو وجهها. بينما احتضنت الهاتف المحمول..

تأملتها طويلا. وتحسرت على حال الدنيا..

تذكرتها عندما كانت طفلة جميلة شقية، لا تكف عن اللعب والشيطنة، و إمطارهم بالأسئلة المحرجة عن كيفية إنجابهم لها.. تذكرت تفوقها وذكاءها، ومعجبيها الذين بدأوا يطرقون أبواب قلبها منذ وقت مبكر، وحياتها التى انقلبت عندما تعرفت على الفتى الخجول الذى صار زوجها..

تذكرت بكاءها الفرح يوم زواجها، والراحة الكبرى التى شعرت بها وقد اطمأنت عليها.. وتذكرت أشياء كثيرة.

مدت يدها لتلتقط الهاتف فى خفة، كى لا تستيقظ النائمة السعيدة، ونظرت إليه فى مقت، كأنما هو سبب المشاكل كلها..

ودون أن تنتوى شيئا محددا، وجدت أصابعها تجرى على مفاتيحه، لتجد المفاجأة التى زلزلتها..

ألقت الهاتف بعيدا فى ذعر، كأنها تلقى عقربا، وهى تفكر أن الجنون الذى أصاب ابنتها قد طالها هى الأخرى.

فالهاتف كان قد سجل آخر مكالمة مستلمة من رقم. كانت واثقة أنه لم يعد ممكنا أن يتصل من جديد.. رقما سجل اسم)حبيبي(!!

كانت المفاجأة لا تزال تأخذها، لكن التفاتة إلى النائمة السعيدة. جعلتها تدرك ما لم تدركه من قبل..

تدرك أنها نامت إلى الأبد، وذهبت إلى حيث يوجد حبيبها!!

مـروان

كنّ جالسات يتبادلن المزاح، وقد تعالت ضحكاتهن..

جلسة السمر التى لم يعد الزمان يجود بمثلها إلا قليلا..

كانت تعشق تلك الأوقات التى تجتمع فيها مع صديقاتها الحميمات.. أوقات تنسى فيها الماضى والحاضر والمستقبل، وتضحك من أعماق قلبها، ويمر الوقت دون أن تشعر به..

وبينما يشربن الشاى، حانت منها إلتفاتة عفوية إلى التلفاز الذى كان مفتوحا للأشباح دون أن يشاهده أحد. يعرض صورا لاحتفالات وأوبريتات عيد الثورة الثامن والعشرين.. نظرت إليه فى غير اهتمام، وهمّت بتغيير القناة، لكنها لمحته..

تصلبت واتسعت عيناها.. للوهلة الأولى ظنته هو، بل كانت واثقة أنه هو، ثم أدركت فيما بعد أن هذا المطرب يشبهه إلى حد مخيف.. كأنه توأمه!

جاشت بها الذكرى المؤلمة. فضاق صدرها. وانقبض قلبها حزنا..

سألنها عما بها. فأجابتهن في مرارة:

- ومن غيره يوجع قلبي؟!!

وانطلقت سيول المشاعر التي كانت تكتمها، ففاضت عيناها بالدموع، دموع حارة، عاجزة.. وهي تحكي لهن من جديد عن الغائب الذي تشتاقه!

كان شعورها نحوه متناقضا، هي غاضبة منه أيما غضب، ومشتاقة إليه أيما شوق في الوقت ذاته.. شوق ذاتها إلى قطعة انفصلت عنها، بل الجزء الثمين منها.

(مروان)؛ الابن العاق الذي نسي أمه، وانشغل في حياته تماما.

حكت لهن ما سمعنه منها كثيرا من قبل.. كيف أحبته من قبل أن تراه، منذ كان مجرد بذرة تتحرك داخلها، وكيف كانت فرحتها عندما جاء إلى الدنيا.. حكت لهن كيف كان جميلا، مضيء الوجه كالبدر، وكان في فمه سن، قال كل من رآه أن هذا الولد سيكون له شأن كبير في المستقبل..

قالت:

"عند هذه البقعة مشى أول خطواته.. وهناك جلست أمرضه عندما أصابته الحصبة.. وعند ذلك الركن أصيب بجرح كبير في جبهته وهو يلهو..

كان دوما يسرق إبر التريكو، ويضعها في مقبس الكهرباء، بمجرد أن ندير وجوهنا عنه.. عدة مرات تسلق سور الشرفة، وكاد يسقط، وأسقط قلوبنا في أقدامنا.

لقد كان بقاؤه حيا معجزة حقيقية!

وفى غرفته تلك كان يستذكر دروسه. وهو يرددها بصوت مرتفع كأنه فى كتاب سيدنا. كان متفوقا فى دراسته بالمناسبة.. وعند تلك النافذة كان ينتحى بالهاتف ليتحدث بالساعات مع تلك الفتاة الرقيعة التى كان يحبها، والتى صارت زوجته فيما بعد.. وفى ذلك المقعد تعثر يوما وهو يهرول ليخبرنى وأباه بنجاحه في السنة النهائية من كلية الهندسة. وكانت فرحتنا لا توصف.

وعند تلك المرآة تشاجر معى فى أول يوم عمل له، لأنني لم أحسن كواء قميصه.. وعلى هذه الأريكة تمدد مرهقا، وهو يقول أنه سيترك العمل، لأنه لم يعد يحتمل الجهد الكبير الذى يبذله لقاء راتبه الضئيل.. وعلى نفس الأريكة جلس يوما ليخبرنا فى فرح أنه وجد عملا فى شركة دولية، وسوف يسافر للعمل فى الخارج.. وهى الأريكة ذاتها التى باح لنا عليها برغبته فى الزواج من تلك الفتاة التى لم أستطع أن أحبها أبدا..

قبل أن يسافر ويختفى تماما، ولا يفكر حتى فى السؤال عن والديه ولو هاتفيا"!!

عند هذه النقطة كانت الدموع قد تمكنت منها. فغابت فيها متوجعة، ومتصعبة..

كانت الصديقات يستمعن إليها، وهن واجمات، لا ينبسن ببنت شفة، ولا يدرين ماذا يقلن لها، فهناك أمور يجب أن تقال، لكن إحداهن لم تجرؤ على قولها أبدا.. ككل مرة!

تخبرهن كيف أنها أحيانا ما كان يزيد غضبها عليه. فتدعو الله أن يذيقه العذاب الذى تعانيه، وسرعان ما تفيء إلى رشدها. وتتمنى إلا يستجاب لها، وتدعو له بالهداية وصلاح الحال..

تقول إنها تفكر كثيرا في اليوم الذى سيعود فيه.. هى واثقة أنها ستعنفه، وستؤنبه كثيرا، وتفرغ فى وجهه كل مخزون الألم الذى عانته بسببه، لكنها تعرف أنه بمجرد أن يرتمى فى أحضانها سوف تسامحه، ويصفو له قلبها تماما!

رفعت رأسها وتأملت التقويم المعلق على الحائط..

– سوف يحل عيد ميلاده بعد ثلاثة أيام، ويتم عامه الثامن والعشرين.. كم أشتاق إلى أيام كنا نحتفل به معا.. سامحك الله يا (مروان).

قالتها وأطرقت، ليسود الصمت الجلسة برهة..

لكن إحداهن، وكانت خفيفة الظل تبدده، وتحكى لهن عن ذكرى لطيفة من ماض جميل مشترك، فتتعالى الضحكات العذبة، وتنزوى الذكرى المؤلمة فى جانب الوعى..

كذا مرت ساعات دون أن يشعرن بها، حتى كان رنين الهاتف الذى أعاد الأمور إلى بدايتها..

بمجرد أن سمعته حتى تهللت أساريرها، وقالت فى فرح طفولى:

– إنه هو بالتأكيد!

وقامت لتخف إلى الهاتف من فورها..

كانت على هذا الحال منذ زمن طويل؛ كلما دق جرس الهاتف

قالت لنفسها أن المتصل هو (مروان) . إلا أن ظنها يخيب فى كل مرة !

وعندما جاءت الهاتف كان زوجها قد سبقها إلي إجابته، فتطلعت إليه بلهفة وهو يتحدث، راجية الله أن يصدق ظنها هذه المرة . .

- نعم؟ (محمد نصر الدين) ؟ لا يا أستاذ الرقم خطأ . . لا داعى للاعتذار، لم يحدث أى إزعاج !

سألته فى خيبة أمل :

- ألم يكن المتصل هو (مروان) ؟

لم يجبها، واكتفى بنظرة عميقة، مؤلمة . .

نظرة ذكرتها بالحقيقة !

الحقيقة التى لم تستطع صديقاتها النطق بها ولو مرة وحدة، وحتى هو نفسه كف عن إخبارها بها منذ زمن . .

الحقيقة أن (مروان) لم يعُقّ والديه أبدا . .

(مروان) لم يسافر إلى الخارج . .

(مروان) لم يتخرج من كليه الهندسة . .

(مروان) لم يتزوج . .

(مروان) لم يله فى أركان البيت . .

(مروان) لم يتسلق سور الشرفة . .

(مروان) لم يضع إبر التريكو فى مقبس الكهرباء . .

(مروان) لم يولد وفى فمه سنة . .

(مروان) لم يكن وجهه كالبدر . .

تطلعت إليه وقد تذكرت . عندما التحم الزوجان بأمواج من البشر ، وقد تفاءلا أن يحتفلا بميلاد ابنهما فى أيام مميزة ليست ككل الأيام . .

بيد أنهما ذهبا وهم ثلاثة ، وعادا اثنين ! !

تذكرت أن (مروان) لم يولد قط من الأصل ، لأنه قتل وهو مازال جنينا فى رحم .

شباب فى دار المسنين

عندما تراهما معا ، فلا شك أن الكثير من المشاعر المتناقضة سوف تجيش بصدرك . .

عجوزان في السبعينيات ، كل الموجودات فى أعينهما فقدت رونقها وجمالها ، وشمس العمر اقتربت من الغروب النهائى . . لكن شمسا أخرى كانت تشرق ، لتكتب لهما بداية جديدة ، وكأنها أعادت عقارب الساعة إلى الوراء . .

هناك في دار المسنين !

عندما التقاها لأول مرة كانت مكتئبة ، منعزلة ، لا تحادث أحدا ، ولا تجالس أحدا . .

وكانت تبكى دوما . . تبكى حسرة على كل ما ضاع منها فى الحياة ، وألما من أمراض عديدة نهشت جسدها . .

توجع قلبه، وأراد أن يساعدها.. بدأ يشد من أزرها ويواسيها، واقترب من قلبها كثيرا حين أصبحت البسمة لا تفارق وجهها بسببه..

جذبها إليه بروحه المرحة، وحبه للحياة، فصارت تبحث عن مائدته لتتناول معه الفطور، وبعدها صارت تتناول معه الغداء والعشاء أيضا، وتقضي اليوم كاملا في صحبته..

جلستهما في الركن البعيد من حديقة دار المسنين، أضحت مشهدا مألوفا.. عرفت كل شيء عنه، وعرف كل شيء عنها؛ ذكريات الطفولة والشباب. العائلة والأصدقاء، الأحلام والأمنيات، الأفراح والمرارات..

يتشابهان كثيرا، كل منهما يحمل في قلبه ذكرى بعيدة لقصة حب جميلة، لم تتوج بالزواج، بسببها أضرب كل منهما عن الزواج، وعاش مع أقاربه، حتى كبر وأصبحت رعايته حملا ثقيلا، ولما ضاق الجميع به وبها، جاءوا بهما ليلتقيا هنا..

ورويدا رويدا تسلل العابث (كيوبيد) ليمارس هوايته المحببة..

بدأ الشعور يغزوهما..

البهجة.. العالم الذي يتجسد في شخص واحد.. لذة اكتشاف الآخر، التي تصاحب قصص الحب.. الحياة التي طفقا يريانها بمنظار جميل، ويتلمظان طعمها من جديد!

شعور جعلهما يستيقظان فرحين في الصباح، ويريان أنه حتى لو كان ما بقي من العمر ليس كمثل ما فات، إلا أنه يمكن أن يكون جميلا، ويحمل الكثير من السعادة!

كانا قد أصبحا مادة لتندر المسنين زملائهما في الدار. حتى أسماهما البعض (عنتر وعبلة) مداعبة..

لم يكونا يهتمان بذلك كثيرا، بل كانا يضحكان معهم لمداعباتهم..

لكنها أحيانا كانت تقول له في خجل بنت العشرين:

- هذا لا يصح، لقد كبرنا على هذه الأمور، انظر ماذا يقولون؟!

فكان يقول لها في حزم:

- فلنكن كبرنا أو لم نكبر، هذا لا يخص أحدا غيرنا، سنفعل ما نشاء دون أن نخاف أحدا.

ثم يردف في أنفة:

- وما أبالي ونفسي غير خاطئة.. إذا تخرّص أقوام وإن كذبوا!!

كان الطبيب يقول لهما أمورا عن المعجزة.. عن الأمل المتضاعف في الحياة، والسعادة، والتفاؤل؛ الخليط السحرى الذى جعل حالتهما الصحية تتحسن بشكل كبير وغير متوقع!

لكنه كان دائما متحسرا، دائما محزونا.. يسألها السؤال الذى ليس له إجابة:

- لماذا لم نلتق في الوقت المناسب منذ سنين طويلة، عندما كان الجسد شابا كالقلب؟! لماذا لم أرك في ربيع العمر حينما كانت الحياة تفتح ذراعيها أمامنا، ولا تدير ظهرها لنا مثلما تفعل الآن؟!

فتبتسم في تسامح، وتقول في خفوت:

- إنه النصيب!

ثم تسرع لتقول مداعبة مغيرة مزاج الحديث :

- من يدرى .. ربما لو كنا التقينا قبل ذلك لما كنت قد أحببتنى !

فكان يهز رأسه فى قوة ، ويقول لها حاسما :

- ما هذا الذى تقولينه ؟! هذا مستحيل .. ليتنا التقينا قبل ذلك .. ليتنا !

***

كانا كثيرا ما يُنقَبان فى أعماق الذكريات .. يتأملان الصور القديمة بلهفة طفولية ، كأنما يحاولان تعويض ما فاتهما من وقت لم يكونا فيه معا ، وما لم يدركاه من الحب ..

كانت تتأمله فى شبابه .. شديد الوسامة ، مرحا ، رياضى الجسم ، طاغى الحضور ، تشع عيناه رجولة ، شبيها بنجوم السينما !

كان يتأملها فى شبابها .. فاتنة حقا ، أنيقة ، شقية ، جذابة ، ممتلئة بالأنوثة ، كأميرات الأحلام !

يوما ما جاءته بصندوق يحوى صورا قديمة ، لم يرها من قبل .. وقالت له :

- هذه أجمل ذكرياتى .. ذكريات الميدان !

ثم أشارت إلى صدرها وتابعت باسمة :

- هاتين الرئتين لم تفسدا من فراغ .. لقد كنت من الثوار !

فابتسم بدوره ، وقال مناكفا :

- أنا أيضا لدىّ ذكريات من الميدان ، ولدى علامات كثيرة على كونى من الثوار .. لكننى لن أريها لك !

ضحكا طويلا، وغاصا في أجمل ذكريات عاشاها يوما..

قالت له وهي تريه إحدى الصور:

- انظر، هؤلاء هم رفقاء السلاح.. هذه أنا، وهذا أخي (حمدى)، وهذه أختي (بسمة)، وهذه صديقتي (شاهيناز)، وهذا ابن عمي (علاء).. وهذا.. هذا لا يبدو واضحا من يكون!

بيد أنه تعرف على الفور على ذلك الشاب، الذى يقف في طرف الصورة، وقد سقط الظل على وجهه، فجعل ملامحه غير واضحة!

صعقته المفاجأة، فاضطرب، وغامت الدنيا في عينيه.. حاول ألا يصدق، لكن الحقيقة كانت أوضح مما ينبغي!!ومنذ ذاك اليوم لم يعد يسألها السؤال الوجودى الحائر:

- لم لم نلتق في ربيع العمر؟!

ستيفن هوكنج يشكو

مشى بمقعده المتحرك الجديد إلى المرآة، وتأمل نفسه طويلا..

عدَل من وضع منظاره الطبى عدة مرات، قبل أن يقول باسما:

- لقد أحببت هذا المقعد.. انظري.. لقد جعلنى نسخة طبق الأصل من (ستيفن هوكنج)، وأنا الذى كنت أشبهه كثيرا!

والتفت إليها، متابعا:

- هل ترين المفارقة؟! هو أستاذ الفيزياء النظرية، وعبقريها، بينما أنا معلم مادة العلوم.. هو أصيب بمرض عصبى شلّه تماما، بينما أنا أصبت أثناء تجربة علمية لاختبار قوة تحمل الجسم البشرى!

لكن عبارته التى حاول أن ينطقها فى شيء من المرح، اختنقت حروفها فى حلقه، وبدت أشبه بالنحيب!

قالت له فى رفق:

- لم لا تحاول أن تنسى وتعيش حياتك؟ ليس هناك من حل سوى هذا.. عيشك الدائم في الماضي لن يجلب لك سوى التعاسة!!

تطلع إليها بنظرة خاوية بلا مشاعر. وقد تذكر اللحظة الفارقة..

كانت لحظة من تلك اللحظات التي تنعطف فيها الحياة إلى أسوأ دروبها، زلزال يضرب مدينة كاملة فيزيلها من الوجود..

ولقد كان زلزالا قويا ضرب حياته..

وجد نفسه يندس وسط المظاهرة، لم يكن قد تظاهر في حياته قط، ولم يشغله ذلك العدد الهائل من الناس. وحتى تاريخ اليوم لم يبد له مميزا..

لم يعنه ما كانوا يهتفون به؛ إسقاط النظام! ليكن، وانطلق يهتف معهم بحماس.. لعله كل سيفعل الشيء ذاته لو كانوا يطلبون أي شيء في الكون. فكل ما أراده حينها هو أن ينفجر، وقد بدت صدفة أن اليوم كان مناسبا لانفجار الجميع!

كان في حالة غربة كاملة، عاجزاً عن تفسير العالم، وعاجزاً عن الصلح مع نفسه، وكان ينزلق في طريق وعر إلى الجنون، بداخله بركان متراكم من الضغوط والمشاكل والآلام، تتصاعد منه الأبخرة السوداء..

أراد أن يتحرر لبعض الوقت من وقاره الزائف، أن يتقافز كالأطفال، ويصرخ بأعلى صوته، ويسب الجميع دون تمييز، ويفعل كل ما يخافه، ويخرق كل القواعد التي كرهها!

لكن كل شيء انقلب فجأة، عندما بدأ الاشتباك..

بدا الجميع خبراء فيما يفعلون . وهم يكرون ويفرون . ويقذفون الحجارة . ويردون قنابل الغاز من حيث آتت ، إلا هو . .

تمنى لو قال كـ (ريتشارد الثالث) . عندما قتل حصانه في المعركة : نصف مملكتي لمن يعطيني حصانا . . لكنه كان سيقول : مملكتي كلها لمن يخرجني من هنا !

لم يعرف كيف وجد نفسه وجها لوجه أمام المدرعة المندفعة وسط الحشود ، التي أطاحت به لعدة أمتار . .

كان بجانبه من سقط ميتا على الفور ، أما هو فكان محظوظا ، وسقط ليقضي بقية عمره على مقعد متحرك ! !

اعتصرت قلبه ذكرى الحادث ، فأغمض عينيه متألما ، وسرت قشعريرة حادة في جسده . .قال لها الكلمات التي أضحت تحفظها عن ظهر قلب :

- أنا أحلّك من وعدك . . اذهبي وابحثي عن فرصة حياة أخرى ، علَ نصيبك يكون أفضل هذه المرة . . أنت . .

قاطعته مشيحة بوجهها عنه :

- كفى . . لن نعود إلى هذا الحديث مرة أخرى ! !

حاول أن يكمل :

- أنت مازلت شابة وجميلة ، يمكنك أن تبدئي من جديد ، وليس لدينا أطفال بعد ، يجعلون الأمر صعبا . . اذهبي قبل أن تضيعي فرصتك مع . .

صاحت مقاطعة من جديد ، وهي تمسك برأسها بين يديها :

- قلت لك كفى.. كفى أرجوك.. لم أعد أحتمل!

فضرب على مسند مقعده. صائحا بدوره:

- قبل أن تضيعي فرصتك معي.. أخبريني، ما فائدتي في الحياة؟! لقد صرت عالة عليك، وعالة على الجميع، وحتى على نفسي.. لن أستطيع أن أغدو وأجئ، بل سأكون شيئا مهملا في البيت!

قالت له في خفوت:

- تستطيع أن تعمل من جديد في مدرستك!

أطلق ضحكة عصبية، وقال وقد زادت ثورته:

- أعمل من جديد؟!! أراك تريدينني أن أعاني أكثر مما أعاني الآن.. عودي إلى الواقع، وكفاك رومانسية.. ربما لو كنا نعيش في أمريكا لكان الأمر محتملا، لكننا نعيش هنا يا عزيزتي.. كل شيء سيكون بمحاذير وقواعد، كل شيء سيكون صعبا ومرهقا ومذلا.. هل تتخيلين رحلة المعاناة اليومية التي سيكون عليّ خوضها للوصول إلى مدرستي البعيدة؟! إنها ستكون أصعب من رحلة (ماجلان) حول الكرة الأرضية ليصل إلى جزر التوابل، ستكون تعذيبا نازيا شنيعا.. لن تطيق نفسي أن أظل أتسول من الناس المساعدة، وهم يشيحون بوجوههم عني.. لن أطيق أن أرى نظرات الشفقة في عيونهم، ومصمصة شفاههم على المسكين.. سيصيبني الجنون عندما أدخل فصلا من جديد لأشعر بالعجز، وأنا لا أستطيع السيطرة على مجموعة من الأبالسة الصغار، الذين لم أكن أستطيع

السيطرة عليهم حتى وأنا صحيح البدن.. سيكون هذا عذابا مضاعفا.. لن يمكننى احتماله أبدا. لن يمكننى احتماله أبدا!

قالت متوسلة:

- أرجوك.. هلا ترفقت بنفسك، وبى؟!

صاح وقد بدأ صوته يتهدج:

- إننى أقول هذا لأنني أترفق بك.. أفيقي، لقد صرتُ بلا قيمة.. لم أعد صالحا لأن أكون بطل فيلمك، الذى كنت تحلمين به وأنت صغيرة.. لن أستطيع أن أربى صغارك، وأسابقهم، وألعب معهم الكرة.. لن أستطيع أن أكون بجانبك فى أى وقت تحتاجين فيه إلىَ كما اعتدت دائما.. لن تشتاقي إلىَ فى يوم من الأيام لأننى سأكون دوما هنا أمامك.. لن أستطيع أن أجرى والأحق الدنيا التى تجرى وتتغير من حولى.. لقد صرتُ مجرد (خيال مآتة)، لا نفع منه يرجى، ولا شر يخشى!

- أنت لم تعد تحبنى!!

قالتها فى ألم أوقف اندفاعه..

بهت، وابتلع الصمت ثورته.. قبل أن يقول بهدوء، وهو يقاوم دمعات كادت تنفلت:

- بل لأني مازلت أحبك، وأعشقك أقول لك هذا.. أرجوك اذهبي قبل أن تضيع الفرصة، وتندمى وقت لا ينفع ندم.. هيا أخبرينى، ما قرارك؟

فكان جوابها أن مدت يدها لتحتضن كفه..

حاول أن يتكلم من جديد، لكن ضغطة رقيقة من أصابعها البضة جعلت كلماته تعود أدراجها..

أراحت رأسها على كتفه، وغاب كفاهما في عناق طويل.

مايكل وعلى وبالعكس

حين دوت صرختها لم يكن أحد يفهم ماذا حدث..

حتى هو نفسه لم يفهم شيئا فى البداية..

لكن الكثير من الفضوليين كانوا قد تجمعوا بالفعل، وبدأوا فى التساؤل عما يجرى هنا..

بالنسبة لها بدا الأمر مذهلا.. حين نظرت إلى وجهه لم تعرفه، مع أن الملامح لم تتغير كثيرا.. أدركت أن ثمة عملية استبدال قد حدثت، رغم أنها لم تترك يديه لحظة واحدة!

أحست بالارتباك وهلةً.. بعدها لم تتمالك نفسها، فصرخت فى ذعر مجنون!!

كانا يسيران معا، وقد منحته كفها الرقيق فى ثقة.. منذ أن ولدا فى يوم واحد، وقد اتفقت الجارتان أن يكون هو لها، وأن

تكون هي له. واعتبرتا أنهما تزوجا بالفعل، وبدأتا تفكران في الأحفاد..

ويوما بعد يوم يكبران، ويكبر الحب معهما..

كانا يعرفان ما هو قادم، سيتخرجان من الجامعة ثم يعملان، ثم يظل الأهل يتعجلوهما الزواج، وبعدها ستتحالف المشاكل لتفسد عليهما حياتهما، وسيخفت بريق الحب المتلألئ وسط زحام الحياة وصعوبتها.. لذا كانا يحبان الاستمتاع بكل لحظة جميلة، خالية من الهموم والمسئوليات..

لكن هذه اللحظة لم تكن متوقعة أبدا!!

كان ألفارق بين النظرة الأولى، والنظرة الثانية، لا يتعدى عدة ثوان. تأملت فيها ثوبا أعجبها في واجهة أحد المحال، وعندما التفتت إليه تسأله رأيه، وجدته قد تحول إلى شخص آخر!

سألوها:

- ماذا هناك يا آنسة.. هل يتحرش بك هذا الشاب؟

لم تعرف بماذا تجيب..

أما هو فتطلع إلى زجاج الواجهة، الذى عكس صورته، فأدرك أن التحول قد اكتمل!

***

لم يكن يعرف، هل تلك حقيقة، أم أنها كانت وهماً توهَّمه؟!

هل قابل ذلك الشخص؟! هل تزاملا ثوارا فى الميدان؟! هل تحدث معه، واكتشف أنه كما لو كان ينظر فى المرآة؟! نفس

الأفكار. نفس الأحلام، نفس الأمراض التي يعانيها. نفس الماضي. والحاضر. والمستقبل الغامض. نفس الرحلة بتفاصيلها. حتى ملامحهما كانت متقاربة إلى حد بعيد!

هل مازحه قائلا أنهما أشبه بشخص واحد يعاني من انفصام في الشخصية؟!

هل تشاركا بطانية واحدة؟! هل هتفا سويا؟! هل ألقيا الحجارة في نفس اللحظة؟! هل تعاهدا على الموت سويا؟! هل احتفلا ورقصا في الشارع، حينما ظنا أنه وقت الفرح؟! هل جلسا معا يسبحان في محيطات الأحلام، ويتصوران المستقبل الزاهر الذي ينتظرهما، وأولادهما الذين سيجيئون إلى الدنيا ليجدوا بلدهم، وقد ضارعت أوروبا؟!

هل عاد ثانية إلى الميدان، وهو يهتف بنفس ما هتف به من قبل؟! هل ارتج عليه الأمر، وظن أن الزمن لم يتحرك إلى الأمام، ولما نظر إلى جانبه ولم يجده، تذكر أنه قتل، وأسلم الروح بين يديه؟!

هل أخبره إن حلمهما سيعيش معه، وأنه سيرى الدنيا بعينيه لأنهما شيء واحد؟!

***

اليوم هو يتساءل: هل حدث كل ذلك حقا، أم أن ذلك الشخص ليس له وجود إلا في خياله؟!

كان يشعر به يتلبسه يوما بعد يوم، يمتلكه، يزيله ويحل مكانه.. لم يكن أحد ليلاحظ ذلك التغير البطيء الذي يحدث له،

بيد أنه كان يلحظه . .مع مرور الأيام، بدأ الشك يكبر، ويتضخم . .
لو كان (ديكارت) حيا، لجلس يراقبه في شغف، وهو يراه يتخبط في متاهات الشك، ولا يعرف من يكون هو حقا !

لم تعد هناك حقيقة راسخة لديه . .

لم يعد يعرف هل كان (مايكل) طوال حياته، أم أنه كان (عليا) في يوم من الأيام !

وكانت الأمور تتطور إلى ما هو أبعد . .

لم يعد يعرف هل هو (مايكل) يفكر أنه يتحول إلى (على) ؟ ! أم أنه (على) يظن نفسه (مايكل) ؟ !

الحياة حوله، والهوية، والأوراق، وكل الشواهد كانت تؤكد له أنه (مايكل) ، لكن هذا لم يكن ما تخبره به نفسه أبدا !

واليوم يبدو أن التحول قد اكتمل، في لحظة غير مناسبة على الإطلاق ! !

ظل واقفا متحيرا، لا يعرف كيف يشرح لهم كل ذلك الجنون، ولا يعرف من يمكن أن يصدقه . . هو نفسه لم يكن ليصدق لو قُصت عليه هذه القصة . .كل ما كان يعرفه حينها، هو أنه سيتلقى العلقة الساخنة في صمت، ثم يحاول فيما بعد أن يعرف من هو حقا . .

(مايكل) . . أم (على) ؟ !

مراهَقة متأخرة

عندما تستيقظ فى الصباح، فتجد نفسك فى غرفة ليست هى غرفتك، وتطالع وجوها لا تعرفها. فلا جرم أنك ستفاجأ.. لكن عندما تجدهم يقولون لك أنهم زوجتك وأبنائك. فلا جرم أنك ستثور وترغى وتزبد!

هذا أمر يكفله لك الدستور والقانون..

- كيف تكونون زوجتي وابنيّ، وأنا لم أتجاوز بعد التاسعة عشرة؟!!

لكنهم يُصرَون على ما يقولون، فتتأمل وجه المرأة. الذى يشي بأواسط الأربعينيات، ووجهى الشابين اللذين يبدوان فى أوائل العشرينيات، وتتساءل وأنت على حافة الجنون. وتكاد تنزلق:

- أقول إننى لم أبلغ العشرين بعد، كيف أنجب من هم أكبر

منى؟! ثم متى تزوجت من الأساس؟! إننى لازلت طالبا فى الجامعة.. هل أنتم مجانين؟!!

فيحكون لك عن الإصابة التى جعلت دماغك يتضرر، والذاكرة قصيرة الأمد، التى لم تعد تتحول إلى ذاكرة طويلة الأمد أثناء نومك.. مما يجعلك تقف عند نقطة معينة لا تغادرها!!

تصيبك الكلمات بالدوار، تشعر بخطورة الأمر، بيد أنك لا تفهم شيئا.. فيبسط لك أحد ابنيك - المفترضين - الأمر:

- أنت مصاب بما يشبه فقدان الذاكرة اللاحق.. يعنى ببساطة أنك مازلت محتفظا بذاكرتك القديمة، أما الأحداث الجديدة فتتطاير دوما من دماغك، بعد أن تنام ليلا.. هكذا تستيقظ كل يوم وأنت مقتنع أنك لازلت فى التاسعة عشرة، وقد توقفت ذاكرتك عند اليوم الذى أصبت فيه أثناء الثورة!

ثورة؟!

تقفز إلى ذاكرتك مشاهد ليست بعيدة أبدا، لعلها بالأمس فقط..

إلا إنها تبدو مشوشة للغاية، مجرد مشاهد متفرقة، وسط الفوضى والصراخ والدماء.. تتجسد لحظة كان وعيك ينسحب منك تدريجيا دون أن تدرك ماذا جرى لك.. تتعجب، هى آخر ما تذكره قبل أن تجد نفسك هنا، لكن عقلك يسترجعها بصعوبة بالغة، كأنما الزمن قد عبث بها، حتى مزقها كل ممزق!

الكارثة الحقيقية أن ذكاءك سيعمل بكامل طاقته الآن، ويرسم السيناريو الكامل لما حدث..

تسألهم ووعيك ينسحب تدريجيا:

- هل تعنون أن..

فتقاطعك زوجتك المفترضة:

- نعم.. اليوم الذى تظنه الأمس، ليس الأمس أبدا. لقد كان منذ أكثر من عشرين عاما.. إلا أن ذاكرتك قد توقفت عنده.

تشعر بالصدمة وأنت تسمع الحقيقة التى أدركتها بنفسك، لأن سماعها من الآخرين جعل لها قوة إقناع أكبر..

يقول أحد ابنيك المفترضين:

- فلتحمد الله أن إصابتك لم تكن خطيرة، لقد قتل الكثيرون فى تلك الأيام..

و يكمل ابنك الآخر المفترض:

- أتعرف أنك كما شاركت فى ثورة الخامس والعشرين من يناير، شاركت أيضا فى الثورة التى تلتها؟

تسأله فى حيرة:

- أنا؟! أى ثورة؟!

- ثورة الـ.. ....فتشير له بكفك مسكتا، غير مهتم على الإطلاق أن تعرف المزيد.. قد اصطرعت الأفكار بين جنبات رأسك، الذى كاد ينفجر..

تتحول عيناك تلقائيا إلى زوجتك المفترضة، وتفكر بينما تدقق

فى ملامحها ، إنك رأيت هذا الوجه من قبل . . (غادة) الفاتنة ، زميلتك التى أسرت قلبك منذ أول لحظة رأيتها فيها ، حبك الأول ، أو كما قال (إحسان عبد القدوس) : ليس حبك الأول بل هو الأخير ، لأن حبك الأخير هو الأول . .

لكن وجهها قد تغير كثيرا ، التغير الذى يحدثه مرور السنين ، وتراكم الهموم . .

ورغم شعورك أنك ملك شطرنج يحاول الهرب بعدما ماتت كل قطع جيشه ، سوف تتمسك بالأمل الأخير ، وتصرّ على عدم التصديق ، وتأمر عقلك برفض كل ما فات . .

- كل ما تقولونه كذب . . أنا لا أصدق حرفا منه !

عندها ستضع زوجتك المفترضة مرآة أمام وجهك ، ثم تسألك :

- ما رأيك الآن ؟ !

فتتذكر عندما أدخلت صورتك فى برنامج الكمبيوتر ، الذى يُظهر لك ملامحك فى المستقبل ، لأنك ترى نفس الوجه الذى رأيته يومها !

وكأنها القشة التى قصمت ظهر البعير . .

تهتز ، تنقلب بك الدنيا رأسا على عقب . .

تجيبها وأنت تكاد تبكى :

- لا أعرف . . لا أعرف . . هذا لا يمكن أن يكون حقيقيا أبدا ! !

ودون مكابرة ، تبكى فعلا . .

يقول لك ابنك - المفترض - فى حنان :

- لم لا تهدأ، وتتفكر قليلا فى الأمر يا أبى ؟
فتشعل كلمة أبى نارا فى أعماقك.. تصرخ فيه :
- لست أباك.. ألا تفهم؟! أنا لم أتخط مرحلة مراهقتى بعد..
كيف أكون أباك وأنت أكبر منى؟!
يقول مصرا على تغذية النيران فى أعماقك :
- أنت لست مراهقا، أنت أبى!!
فتعلو النيران، ويعلو صراخك :
- أنا لست أباك.. لست أباك.. لست أباك.. لست أبااااك!
فتحاول زوجتك - المفترضة - تهدئتك، ثم لا تلبث أن تتراجع، وهى ترى الشرر يتطاير من عينيك..

سوف تنهض غاضبا، وأنت لا تدرى ماذا تفعل، أو إلى أين تذهب، فقط تريد المضى إلى أى مكان بعيدا عنهم..

لا تجد أمامك غير ملابس وقورة لا تناسب سنك، ترتديها مضطرا..

و عندما تغادر، وقبل أن تغلق باب البيت، تسمع حوارهم عرضا..

ابنك - المفترض - يقول متبرما :
- لم يبدو بهذه العصبية؟ لقد كان أكثر هدوءا لمدة طويلة؟ إننى أفكر بدءا من الغد فى أن نعود إلى وضع الأوراق له، ليقرأها عندما يستيقظ!
فتجيبه زوجتك - المفترضة :

- ليكن. إنه عصبى للغاية هذه الأيام بالفعل، على كل حال فأنتم لديكم جامعتكم غدا، وأنا لدى الكثير من الأعمال. سأحرص على وضع الأوراق له بجانب الفراش!

يقول ابنك الأخر -المفترض- بما لا يقل تبرما عن أخيه:

- أحيانا كثيرة أشعر أنى لا أحتمل، لم كتب علينا أن نعيش دوما هذا الوضع؟ لماذا تزوجت أبى، وكيف احتملت كل تلك السنوات؟!

فتجيبه زوجتك - المفترضة- ضاحكة:

- دائما تسألنى هذا السؤال، ودائما أجيبك نفس الجواب؛ إنه الحب يا عزيزى.. كل من عرف بأمر هذه الزيجة حاول اثنائى عنها، الجميع يقولون إننى مجنونة، لكننى كنت ولازلت أؤمن أن الحب يصنع المعجزات!!

يقول ضاحكا هو الآخر:

- وجوابك دوما يذكرنى السينما، هذه الرومانسية والتضحيات ليست موجودة فى أرض الواقع!

تقهقه، وترد في بساطة:

ـ ألم يقل (أوسكار وايلد) إن الطبيعة تقلد الفنان؟ إن السينما هى من تقلد الواقع وليس العكس يا ذكى.. لقد كنت أعرف تماما إننى حين أتزوجه، فانه سوف يستيقظ كل يوم وقد نسى كل شيء، لكننى أردت منحه حياة طبيعية.. قلت له كثيرا أنه سيكون مثل (نيكولاس فوجيسيك)، وسيعيش حياته كأن لم يصب بأي أذى..

وقد كان رافضا لهذا، وطلب منى أن أتركه، وأعيش حياتى مع إنسان طبيعى، لكننى أصررت على البقاء بجانبه!

وصمتت وهلة، قبل أن تقول:

- والآن بعد كل تلك السنوات، قد لا أكون قد نجحت تماما فيما تصورته من أجله، لكنه الآن لديه أسرة، وفى بعض الأيام يكون سعيدا، أو راضيا على الأقل.. كم أشعر بالسعادة حينما أرى ابتسامته.. أنا غير نادمة على كل ما فعلته، وكل ما تجشمته من أجله، وأستطيع أن أفعل له ذلك إلى الأبد، ببساطة لأننى مازلت أحبه.. أحبه كيوم دق قلبى له منذ أكثر من عقدين!! لن تفهمنى يا عزيزى إلا عندما تحب، وحينها سوف تتذكر تلك الكلمات جيدا: الحب لمن يستحق الحب، والوفاء لمن يستحق الوفاء!!

حديثها يهز أعماقك، وتمس شغاف قلبك.. ورغما عنك تملؤك كلماتها سعادة، وتجعلك تطير فرحا.. إلا أنك سرعان ما تكتئب، وقد عدت إلى مصيبتك!

***

سوف تمشى فى الشوارع، هائما على وجهك، وقد اسودت الدنيا فى عينيك.. تريد ألا تصدق كل ما يجرى حولك، إلا أن الأوان قد فات، لأنك تصدقه بالفعل!

يؤلمك التفكير فى سنوات كثيرة من عمرك قد سرقت، ومرت بأسرع مما تخيلت.. يُغشى عليك وأنت شاب يافع، لم يتخرج بعد من الجامعة، وبين إغماءة وإفاقة تجد نفسك، وقد صرت أبا لشابين فى العشرينيات، وعليك أن تتعايش مع هذا.

ربما تكون لديك بعض الايجابيات هنا . . لديك زوجة رائعة ، تحبك وتحملت معك ما لا يطاق ، ولديك ابنان يشبهانك كثيرا . .

إلا أنها ليست (غادة) الشابة ، المليئة طاقة وسحرا التى عشقتها ، بل امرأة ناضجة ، مثقلة بالمسئوليات والهموم . . لم تعش معها أيام الحب والسعادة التى تمنيتها ، أيام العسل المصفى ، وأمسيت كأنك تتعرف عليها من جديد كل يوم . . وأما أولادك فلم تعش ميلادهم ، وأطوار نموهم ، لم تعش الفرحة التى ينتظرها كل أب ، ليرى أطفاله يحبون ، ويتكلمون لأول مرة ، ويستخدمون الحمام لأول مرة ، بل فجأة تجدهم وقد صاروا أكبر منك .

ستقول لنفسك أن هؤلاء ليسوا عائلتك ، إنهم غرباء عنك !

سوف تسترجع خططك العديدة التى رسمتها لحياتك ، والتى كنت تجلس لساعات هائما فيها ، وتدرك أنها ضاعت إلى الأبد ، بعد أن سرقت منك أجمل سنين عمرك ؛ سنوات الطموح والأمل ، زهرة العمر . . وأمسيت كأنك تولد كل يوم من جديد ، وكل أعمالك تحولت إلى نحت على الثلج ، تذوب كلما أصبح عليك الصبح !

ستدرك أنك صرت تعيش بلا فائدة ، وبلا أمل ، وبلا هدف !

إنه لشعور قاس صدقا ! !

ستتخذ جلستك قبالة النيل ، وقد تاهت منك الأفكار ، وشعرت بالضياع ، وتحيرت ماذا تفعل . . أصدقك القول إننى لو كنت مكانك ، لكنت ضائعا مثلك تماما !

ستطول جلستك لساعات وساعات. وقد فقدت الإحساس بالعالم الخارجي، وفكرت في الموت كل لحظة..

وبعد أن تشعر أن كل المنافذ قد سدت في وجهك، فجأة سيضيء الحل عقلك، وستضحك من نفسك كثيرا..

ستقول ساخرا إنك تستحق كأس العالم في الغباء، لأن حل أزمتك كان أمامك طوال الوقت، سهلا، بسيطا، ناجعا.

سوف تسأل نفسك: لم لم تفكر منذ البداية أنه حلم؟!!

- نعم إنه حلم.. بل هو كابوس!!

هذا ليس واقعك، هذه ليست حياتك، وهذا ليس أنت..

إنه مجرد كابوس سوف تستيقظ منه، لتجد نفسك في فراشك المبلل بالعرق، وأمك تطالعك بابتسامتها الجميلة، وضوء النهار يغمر وجهك بلطف وحنان!

كل ما عليك هو أن تصبر وتنتظر حتى تستيقظ، وبعدها يعود كل شيء كما كان.. فقط عليك بالصبر!!

سوف يقنعك هذا التفسير كثيرا، وينعش روحك التي انطفأ بريقها..ستقول لنفسك أنه طالما سيكون عليك الانتظار، فلتتعامل مع الكابوس بقواعده، لن تجلس في الشارع منتظرا أن تستيقظ، ولديك بيت وأسرة، يمكنك أن تزجي معهم الوقت حتى تستيقظ، وتتحرر من هذا الكابوس المريع..

ستعود أدراجك بعد وقت طويل، وتقضي وقتا طيبا مع زوجتك وابنيك المفترضين، وقد خدعتهم، بأنك صدَقت كل ما قالوه..

تتحدثون وتتضاحكون. وأنت تفكر في قدر غرابة الأمر، فما تعيشه الآن لا يتعدى في الحقيقة أكثر من عدة ثوان، هي طول الحلم، بينما تعيشها أنت ساعات طوالا هنا.

لا ريب أن الدهشة ستملؤك، وأنت تتأمل كل ما يجرى حولك، إنه كابوس محكم متقن الصنع، لو لم تكن واثقا من رجاحة عقلك، لقلت إنه الواقع بالفعل!

ستفكر أن معدتك كانت ممتلئة بالدسم قبل أن تنام، ليخرج لك عقلك الباطن هذا الحلم اللعين، وستقرر تخفيف عشائك بدءا من اليوم، بل ستقرر أيضا أن تبدأ حمية غذائية لتقليل وزنك بمجرد أن تستيقظ..

يبدو إنك بدأت ترى في الأمر بعض الفوائد!! أعرف أنك ستفكر في تلك الأسئلة الرهيبة.. ماذا لو لم يكن هذا كابوسا؟! ماذا لو كانت هذه هي حياتك فعلا؟! دعني أقولها، وأنا اعرف تماما عمَ أتكلم: إن رعب هذه الفكرة ليفوق بمراحل أى رعب خبرته من قبل، أليس كذلك؟!

لكنك ما ستفتأ تؤكد لنفسك أن هذه حالة عابرة، وكل شيء سينتهي قريبا.. فقط الصبر، الصبر!

وبعد بضع ساعات ستدخل لتنام، متهيئا لأن تعود إلى حياتك الحقيقية بمجرد أن تستيقظ..

لكن ما بالك لو أخبرتك أنك تستيقظ كل يوم، لتتلقى نفس الصدمة منذ سنوات طويلة؟!

مـا بـالك لـو قـلـت لك أن هـذا بـيـتـك . وهـذه زوجـتك ، وهـذان ابناك ؟ !

لـعـلك تـشبه (سـيـزيـفـوس) بـشـكـل لا يـصـدق . لـكـن هـذه هـي حياتك الحقيقية !

لا أرى مبررا لكل هذا الفزع المرتسم على وجهك ، صدقني سوف تتجاوز هذه الصدمة ، عندما تستيقظ غدا صباحا ، وقد نسيت كل شيء ، وسوف تفكر من جديد أنك تعيش كابوسا ، وسوف يرضيك هذا التفسير كثيرا ، ثق بي .

إغريقي جدا

ناداهم كثيرا عندما ولج إلى البيت، فلم يجبه أحد.. بحث عنهم، فلم يجدهم.. الصمت يغطى المكان، والفراغ يتمدد من حوله، والمرارة تخنق روحه..

كان كلما خرج، عاد ليبحث عنهم، واثقا أنه سيجدهم هنا، لأن عقله كان يرفض استيعاب الأمر حتى الآن..

هكذا، كلهم دفعة واحدة!!

كل أحبائه في الحياة اختفوا فجأة، تبخروا.. هو لا يعرف ماذا وقع لهم، غاية ما يعرفه هو أنه أصبح وحيدا تماما.. كأنه (تنتالوس) الذى وجد نفسه فى عالم من الفراغ.

لم يدُر بخلَده من قبل أن يكون للصمت كل هذا الضجيج، ضجيج حاد يؤلم أذنيه، ويتردد وقعه فى نفسه الخربة! كان الجنون

يتملكه كلما تفكر في الأمر . . كيف لا يستطيع أن يعرف ماذا جرى لهم. وهو من هو . . الاسم الذى كان مجرد ذكره يلقى الرعب في قلوب أعتي الرجال. ويجعل الأجنة تشيب في بطون أمهاتها . والوحوش تتمسح بأرجل فرائسها . . لكن الأمر بالنسبة له لغز كبير ، معقد تعقيد متاهة (اللابيرنث) !يوم ذهب لإجراء جراحة عاجلة ، تركهم متوقعا أن يجدهم حوله ، يهنئونه بالسلامة عندما يفيق من المخدر ، بيد أنه لم يجد أحدا . .

في ذاكرته مساحات بيضاء كبيرة . . وفي روحه ثقب أسود عملاق ، يمتص الحياة والذكريات والحب والأمل . . ويلقيه على الجانب الأخر وحيدا ، مهجورا ! كان يستيقظ من نومه كل صباح ليسأل نفسه عما يجعله ما يزال يعيش حتى الآن ، ومن أجل من ؟ ! !

جلسته صارت دائمة بجانب النافذة الكبيرة ، حتى أنه كان ينام كثيرا حيث هو . . يتأمل الناس الذين لازال لهم أحباب يعيشون من أجلهم ، والشمس التى تغرب ، لكن عندها ما يكفي من الأسباب كي تشرق من جديد !

***

كان الطبيب يتأمل مريضه الراقد بين اليقظة والنوم ، لم يستعد وعيه كاملا ، لكنه كان يعرف أنه يسمعه جيدا . .

ابتسامة هي خليط من الفرح والتشفى كانت تملأ وجهه . .

قال له :

– حمدًا لله على سلامتك يا بطل . . تهانيّ . . لقد نجحت العملية

رغم كل الصعوبات التي اكتنفتها لكبر سنك، وما تعانيه من أمراض.. لكن هناك ما هو أهم لأخبرك به!

و أخرج من جيبه قنينة صغيرة بها سائل ارجواني اللون. تأملها في إعجاب، قبل أن يسأله:

- هل تعرف ما هذه؟ إنها السحر، الإبهار، ثورة العلم وذروته.. إنها..

بتر عبارته، واستدرك قائلا:

- اسمح لى أن أعرفك بنفسى أولا.. أنت تعرف أننى الدكتور (عماد جابر عبد العظيم)، لكنك لا تعرف بالتأكيد أننى والد (حسن عماد عبد العظيم).. وكيف تعرفه؟! كيف ستتسع ذاكرتك لكل الأسماء؟! بل كيف ستعرف تلك الأسماء أصلا؟! إنه أحد الذين قتلهم رجالك، عندما كان الناس يملأون الميادين والشوارع.. كان هناك منذ سنوات شيء اسمه (ثورة).. هل تذكرها، أم أن (الزهايمر) قد بدأ يعمل في ذاكرتك؟

ثم أشار إلى الصامت، صاحب الوجه جامد التعبيرات، واستطرد:

- وهذا هو الدكتور (هشام عبد الغفار)، واحد من أنبغ علمائنا فى الخارج، أستاذ كبير فى أبحاث المخ.. كان له ابنة شابة تعيش هنا، قتلها رجالك هى الأخرى..

رأى المريض يحاول أن يتكلم، فأوقفه بإشارة من يده، وقال بهدوء:

أخفيت كل أدلة إدانتك . وظللت بعيدا عن الحساب ، وطال بك الزمن حتى نسى الجميع
كل شيء ، وصار الراحلون مجرد أرقام لا يأبه لها الناس ، وسط الكثير من الأرقام !

تنهد بعمق ، ثم قال وقد زاغ بصره :

- أريدك أن تعرف أننى لم أكن أفكر أبدا فى الانتقام ، ولا أظن أن أحدا ممن فقدوا أحباءهم على يديك ، قد فكر فى ذلك أيضا . . لم أسع وراءك يوما ، بيد أن القدر هو من قادك إلىّ . . وقد سعدت كثيرا بالفرصة النادرة التى أتحتها لى . . قل لى بالله عليك لو كنت مكانى ، هل كنت ستضيع هذه الفرصة ؟ ! !

لمح الخوف فى عيون المريض ، فعادت ابتسامة التشفى إلى وجهه ، وهو يقول :

- اطمئن يا عزيزى نحن أناس متحضرون ، لن نقتلك ، لكن انتقامنا سيكون أشد وأسوأ من ذلك ، نوع فريد من الانتقام لا أظن أنه يخطر ببالك . . هذه المعالجة الكيميائية التى توصل إليها الدكتور (هشام) فى أبحاثه ، والتى حقنتك بها سوف تشوّش على خلايا مخك ، وتثبط من . . ولكن لماذا أرهقك بتفاصيل علمية لن تفهمها ؟ ! القصة كلها يا عزيزى إنها سوف تجعلك مثلنا ، سوف يتلاشى أحباؤك من أمام عينيك ، سيتبخرون . . لن تستطيع أن تكلمهم أو تراهم رغم أنهم أمامك ، ستكون كأنك فى عالم ، وهم فى عالم أخر !

وسكت وهلة. ثم قال وقد اكتسى صوته بالانفعال:

- سيسمم الحزن روحك، ويفتت الألم قلبك عليهم.. ستخبر مشاعر الضحايا، ولوعة الآباء، والأمهات.. ستعيش ما عشناه على يديك.. ألم أقل لك إنه انتقام فريد من نوعه؟

أطلق ضحكة قصيرة، وتابع وهو يهيم في اللاشيء:

- كم يعجبني هذا الأمر.. ألا ترى معي إن فيه نوعا من العدالة الشعرية؟ إنني أرى فيه عقابا إغريقيا قحا.. ستكون خليطا لطيفا من عذاب (بروميثيوس) المعاقب، والأم (أطلس) الدائمة، وأحزان (اورفيوس) العاشق المكلوم، ولوعة (ديميتر) على ابنتها (برسيفوني).. ستكون كنزا ميثولوجيا يمشي على قدمين!

ثم مال عليه، ونظر إليه بعينين أسكرتهما النشوة، وهمس بصوت كالفحيح:

- هنيئا لك بحياتك الجديدة.. حقا، هنيئا لك!!

***

كانوا مجتمعين كلهم، إلا قليلا..

القلق والتوتر يخيمان على المكان، الوجوه المكفهرة، والأرجل التي لا تكف عن الاهتزاز، ولفافات التبغ التي جعلت الدخان ينعقد في سماء الغرفة، حتى لتظن أن هطول المطر وشيك..

بين الفينة والفينة، كانوا يتطلعون إلى الجالس بجوار النافذة الكبيرة، وقد رسم الحزن أقسى تعابيره على وجهه، وغاب في عوالم أخرى..

قال أحدهم :

- يجب أن نجد حلا . . إنه لم يعد يرانا ، أو يشعر بنا . . يأتى ويذهب هائما في عالمه ، كلما كلمناه لا يجيبنا . . كأنه لم يعد معنا !

قال أخر :

- يجب أن نجرى له فحوصا لمعرفة ماذا جرى له !

قالت إحداهن ، وكانت زوجته :

- لقد سألت الدكتور (عماد) عن هذا الأمر ، فتعجب بشدة ، وقال إن العملية لا علاقة لها بالأمر ، وأبدى استعداده لمساعدتنا فى علاجه . .

تساءل أحدهم :

- ولكن كيف سننقله من هنا إذا كان لا يرانا ، ولا يسمعنا ، ولا يحسنا من الأساس ؟ !

أشاحت بيدها وقالت :

- تلك ليست مشكلة . . ما يهم هو أن نتحرك بسرعة ، فالأمر جد خطير ! !

***

لم يكن يعرف ما الذى أتى به إلى هذا المكان ، لقد دخل ليلة لينام ، فصحا ليجد نفسه هنا ! !

المساحات البيضاء فى عقله تتسع ، والأسئلة الحائرة تتكاثر بالفعل ، دون أن يجد لها أية إجابات . .

لم يكن يفهم لِم كان هؤلاء الأطباء يلتفون حوله ، كأنه فأر

تجارب. ويسحبون منه عينات الدم، ويدخلونه في أجهزة غريبة. ويوصلون أقطابا إلى جسده، ويجرون له فحوصا طبية. وفي النهاية يعودون به إلى تلك الغرفة الأشبه بالسجن.

لكنه لم يعد يأبه لأي شيء، فقد كان الحزن والأسى قد أورثاه حالة من الارتخاء الكامل، جسدا وعقلا.. نورستانيا جعلته غير قادر علي التفكير المنتظم، أو ترتيب الأمور، أو الاعتراض، أو التساؤل، أو حتى الحديث.. وكان بين أيديهم عجينة طيعة لينة!

صارت لا رغبة لديه في الحياة، لم يعد يأكل أو يشرب إلا غصبا، وتمنى من قلبه لو مات اليوم قبل الغد!

إلا أنه، ورغم كل ذلك، فقد كان هناك أمران يثيران حيرته بشدة، ويفكر فيهما كثيرا قبل أن ينام.. تلك النظرة الغريبة التي يرمقه بها طبيبه (عماد)، وتلك الأوقات، عندما يخبرونه أن هناك من أتى لزيارته، فينزل من غرفته ليجلس متأملا المقاعد الفارغة!

ثورة على القضبان

كان الركاب يتدافعون ناحية القطار الذى انطلق بدونهم، وقد علا صراخهم، طالبين من السائق أن يتوقف، حتى يتمكنوا من الصعود..

لكن الأخير كان مُصرًا ألا يتوقف، وألا يتركهم يصعدون مهما كان من أمر!!

مازالوا يركضون، وقد تقطعت أنفاسهم، وبدأ التعب يدركهم..

لا يعرفون ماذا يصنعون، وقد تسرب اليأس إلى نفوسهم..

لكن شابا يفكر فى المستحيل، ويتخذ القرار الصعب.. فيقفز على القضبان قاطعا الطريق..

القطار لا يتوقف، مازال يزحف بإصرار ناحيته..

ولثانية تملكه الرجفة، إلا أنه لا يتراجع خطوة واحدة، يدق رجليه أوتادا في الأرض، ويغمض عينيه، منتظرا النهاية في رضا وراحة نفس!

وفي الثانية الأخيرة، لا يجد السائق مناصا مما يكره، فيتوقف مرغما، وقد تمنى من أعماق قلبه لو أكمل طريقه فوق جسد الشاب..

عندها يسرع الركاب متخذين أماكنهم، والابتسامات تعلو وجوههم!

***

اختالوا زهوا بالشاب، وأشبعوه تقريظا، وكتبوا في مدحه معلقات جاهلية.. ثم لم يلبثوا أن صاحوا في السائق أمرين إياه أن ينطلق بهم، بعد أن تم المراد من رب العباد..

بيد أن القطار لم يتحرك، لأن الشاب لم يزل في مكانه!

استاءوا منه، قالوا إنه لا يريد لهم أن ينطلقوا كالآخرين، وأن هناك أشرارا يعطونه أموالا ليظل في مكانه، ويؤخرهم عن أعمالهم ومصالحهم!

لم يأبه الشاب لقولهم، كان ثابتا على موقفه كالطود.. قال إنهم ليسوا سوى قلة من ركاب القطار، بينما الباقون مازالوا في الطريق، وأنه لن يذهب إلا بعد أن يصلوا، ويتخذوا أماكنهم مثلهم.. حينها فقط يمكن أن يدع للقطار طريقه..

تشاجروا معه، شتموه، لعنوه بعدد نجوم الكون، وعدد رمال

الصحراء، وعدد نمل الأرض، وتمنوا له أن يصلى جحيما فى سقر!

بيد أن إقناع (هانيبال) بالتراجع عن غزو روما، بل وتحريك الأرض عن مدارها الشمسى، كان هذا أيسر من إقناع الشاب بالتزحزح عن القضبان!

أنذروه الإنذار الأخير:

- ابتعد وإلا دهسناك!!

ولما لم يبتعد، عادوا إلى السائق الذى كان - ولا يزال - يريد أن يدهسه.. أمروه أن يتحرك فى طريقه، ولو على جثة الشاب هذه المرة!

هنا قرّ قلب السائق، ولم يكذّب خبرا، فانطلق.. والشاب كما هو، صلبا، لا يهتز، ولا يتراجع!

***

وانطلق القطار بربع ركابه، الذين علت أصوات تصفيقهم للسائق وضحكاتهم، على صوت عظام إنسان تنسحق تحت عجلات القطار!

ومن بعيد كان بقية الركاب يلهثون وراء القطار، ولا يدركونه.. وكلما كانت سرعتهم تزداد، كانت سرعة القطار تزداد، وتتسع المسافة بينهم وبينه، حتى أمسى القطار نقطة بعيدة فى الأفق!

عصفور يعيش فى الماء

أهداها عصفور الكناريا فى عيد ميلادها، ووعدها أن يبقى معها إلى الأبد.. ثم رحل، وبقى العصفور يذكرها به..

كانت تتساءل: كل الناس يحبون، وينكسرون، ثم يتابعون حياتهم، فلم لا تفعل هى؟!

صديقتها أحبت مرتين، وهُجرت فى المرتين، لكنها تواصل حياتها وتضحك.. لابد إنها بطلة إذن!

طمأنوها أن الأيام تداوى الجروح، وأن النسيان قادم لا محالة.. لكن الأيام تمر دون أن تفعل شيئا، والنسيان لا يأتى أبدا..

يظل هو أبعد الناس عنها، وأقربهم إلى قلبها!

***

قال لها: سأذهب.. اذهبي معى!

قالت له : بل أبقى أنت معى !

قال : تلك فرصة لا تعوض ، تأتى مرة واحدة فى العمر . .

قالت : بل ستأتيك فرص أخرى ، صدقنى سوف يتغير الكثير فى المستقبل ، وتحقق أحلامك كلها هاهنا . .

فضحك : يا للأوهام ، كم أضاعت من أجيال قبلى . . هناك سوف أحقق أحلامى كلها . . طريقى هنا مظلم ، يمتد إلى ما لا نهاية ، لن يضيء حتى لو مشيت مائة عام . . حدثينى عن الثورة وعن أحلام لن تتحقق إلا فى زمن أولادنا وأحفادنا ، إن تحققت من الأصل . . أتدرين ، لو كان (زويل) قد بقى هنا لأصابوه بالجنون ، ولمات جوعا وهو ينتظر جنيهات علاوة الدكتوراه !

تطلع إلى السماء وأردف : أنا كالعصفور ، لا يستطيع البقاء فى قفص ، يجب أن يكون حرا . . يفرد جناحيه ويطير فى السماء الواسعة !

قالت : وأنا كالسمكة ، لا تستطيع أن تخرج من الماء ، وإلا ماتت . . لن يمكننى أن أعيش فى مكان إلا هنا !

فأطرق طويلا ، ثم قال : إذن فالعصفور والسمكة لا يمكنهما أن يكونا معا !

ومضى دون أن ينظر وراءه !

***

تأملت العصفور المضرب عن الزقزقة ، المنكمش فى ركن القفص ، المتطلع دائما إلى السماء ، كأنما يطلب حريته . .

تنهدت، وهمست له: يبدو أنك مثله تماما!

واتخذت قرارها..

سوف تنساه، سوف تمقته من أعماق قلبها، وستواصل حياتها..

امتدت يدها لتفتح القفص، فأندفع العصفور خارجا، وطار فى فضاء الغرفة.. رفرف بجناحيه، ونظر إليها ممتنا، لو كان للكناريا أن توجه نظرة امتنان!

ولما ابتلعته السماء الواسعة، انفلتت دمعتها وهى ترمق القفص الفارغ، كقلبها الفارغ، وتمنت أن يكون ذلك نهاية عذابها..

إلا أن العصفور لم يغب طويلا، عاد بعد وقت قصير، وبنى لنفسه عشا على الشجرة الملاصقة لبيتها.. هكذا كانت تستيقظ كل يوم على زقزقته، التى لا تتوقف إلا عندما تخرج إلى الشرفة، كأنه يناديها!

فتتذكر الغائب الحبيب بمجرد أن تراه، وتتذكر قرارا عجزت عن تنفيذه..

تسأله فى حنق: حتى أنت أيها الصغير تصرّ على تعذيبى؟!

***

فى ذلك اليوم شردت طويلا فى الأيام الخوالى، وغمرها حنين جارف، فتمنت أمنية..

تساءلت: ترى هل يمكن للعصفور أن يعيش فى الماء؟!

فى تلك اللحظة ارتفع رنين الهاتف، فخطف روحها، وطرق

السؤال عقلها لحوحا، مفعما بالأمل: ترى هل يكون هو؟!!
أجابت كأنها فى حلم..
وكان صوته..
يقول فى هيام: أحبك حتى الجنون.. لا أريد شيئا فى الحياة إلا أن أكون معك!
فتجيبه متاكفة: ألم تقل أن العصفور لا يمكن أن يكون مع السمكة؟
معتذرا يجيب: سامحينى، كنت مخطئا، بل العصفور لا يمكن إلا أن يكون مع السمكة!
ويقهقه قائلا: أتعرفين؟ لقد أثبتت الأبحاث العلمية أن العصفور يمكنه أن يعيش فى الماء، طالما يعشق السمكة! فتقهقه بدورها، وترد فى دلال: ولكن السمكة يمكنها أن تترك الماء وينبت لها أجنحة!
ويضحكان، فيتوقف الزمن، وتعود الحياة جميلة..
تفيق من شرودها، لتدرك أن الهاتف لم يدق قط..
وعندما تهم بالمغادرة يدق الهاتف حقا هذه المرة، فيدق معه قلبها بقوة، وتلتقط السماعة بأصابع مرتجفة، وتنصت فى أمل!!

فقاعة متمردة

لعله مر أمامك وسط كتل اللحم المتلاصقة، لكنك لم تلحظه، أو لعله ارتطم بركبتك، لكنك لم تلحظه أيضا..

لا تلم نفسك، فلا أحد فعل على أية حال!

وسط الأصوات المتداخلة، والهتافات الحماسية، والألعاب النارية التى تنفجر فوق الرءوس كل لحظة، الضوضاء الرهيبة التى تجعلك عاجزا حتى عن سماع أفكارك..

تعلق بذراع والده عندما رأى الرسام يلون الوجوه، فابتسم الوالد وهز رأسه موافقا..

رسم له علم مصر على وجهه الصغير، لكن العلم تداخلت ألوانه عندما غمرت الدموع وجهه..

كان كيانه يرتعش فى انتفاضات متشنجة، وهو يناديهم بقلب واجف، وصوت مذعور: ماما.. بابا!!

سأل أمه : إلى أين سنذهب ؟ فأجابته : سنذهب إلى الثورة !

لم يفهم ماذا تعنى ، لكنه ارتدى ثيابه الجديدة ، ومضى معهما ، وهو لا يفتأ يطلب منهما العودة إلى البيت ، ويسأل متأففا في كل لحظة : هل يجب أن تكون الثورة مزدحمة هكذا ؟ ! الحظة خاطفة ، كان يمسك بيد أمه ، ثم لم يعد يمسكها . . نظر فلم يجد يدها ، ولم يجدها !

كان يتخبط في الأرجل ، وينادى بأعلى صوته ، الذى كان همسا وسط المهرجان المحيط . . تعثر عدة مرات ، وسقط وسط غابات الأرجل ، لكن أحدا لم يره أو يشعر به . .

انتحى جانبا ، تكور على نفسه ، وهو ينتحب في نشيج لاهث . .

ولما لمح ذلك الطفل الذى ينفخ فقاعات الصابون من لعبته ، تلاشت الدموع ، وارتسمت ابتسامة لطيفة على محياه . .

تعلقت عيناه بتلك الفقاعة ، التى انفجرت كل مثيلاتها على ارتفاع قليل ، بينما هى تواصل رحلتها إلى أعلى . . قهقه في جذل وهو يراها ترتفع متحدية كل شيء . .

خفتت الضوضاء في أذنه ، وانفك الزحام من حوله ، وذهبت المصيبة إلى حين ، وقد امتصته اللحظة وهو يراقب الفقاعة المتمردة !

صفق بيديه يشجعها ، كأنها يمكن أن تسمعه !

كانت ترتفع وترتفع ، وقد حافظت على وجودها . . وكانت تصغر وتصغر في عينيه ، حتى لم يعد يراها . .

فجأة عادت الضوضاء من جديد ، وانعقد الزحام ، وتكاثرت الأرجل التى تصطدم به ، وامتلأت عيناه بالدموع ، وهو يبدأ رحلته من جديد ! !

السؤال

كان القيظ شديدا ، و (الميكروباص) ينطلق فى طريقه . . قد ساده الصمت إلا من الراكبين الجالسين جوار السائق ، اللذين انخرطا فى نقاش سياسى ، أشد سخونة من حرارة الجو . .

كانت المرأة الجالسة فى الخلف غارقة فى عالمها . . لم تنل قدرا كبيرا من التعليم ، لكن عقلها كان مستغرقا فى محاولة اكتشاف ما قد يستعصى على أنبغ العلماء ؛ تفكر فى كُنه المعجزة التى ستمكّنها من تلبية احتياجات بيتها بقية الشهر ، بالقليل الذى تبقى من راتبها وراتب زوجها ، بعد أن ارتفعت الأسعار للمرة المائة !

عندما سمعت تلك الكلمة ؛ انتبهت . .

قفز إلى ذهنها السؤال الذى يحيرها منذ وقت طويل . .

سألت فى اهتمام :

- لا مؤاخذه يا أستاذ.. هو يعني إيه ثورة؟!

فانفجر جميع الركاب ضاحكين..

كانت تتمنى لو تفهم؛ لِم يضحك الجميع كلما سألت هذا السؤال!

وعندما ذهب الضحك إلى حيث يذهب كل شيء جميل، ساد الصمت من جديد، وغرق كل في عالمه، بعد أن غاب السؤال في جميع العقول باحثا له عن إجابة!!

المحتوى

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوبا على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلا عليه العمل إن أمكن.

* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .

* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

صدر مؤخراً فى سلسلة
كتابة

20- كان عمرى ستاشر ربيع .... محمد فهمى

21- التحرر من نوبات الغياب .... سامح سكرمة

22- دمٌ لإضاءة الطابق الثانى .... أحمد عادل

23- النبــوءة .... أسامة لبيب

24- علــى دراجــة .... شريف سمير

25- أراكــم في مرآة روحــي............ سماء فهمى

26- تلاوة في كتاب السامرى............ محمد مجدى

27- عصاى معى والكون يهتز تحتى ...... محمد المصطفى

28- البنت اللي مليانة ديفوهات............. ريهام سعيد

29- بتغير كل يوم عدسات.................. حازم المرسى

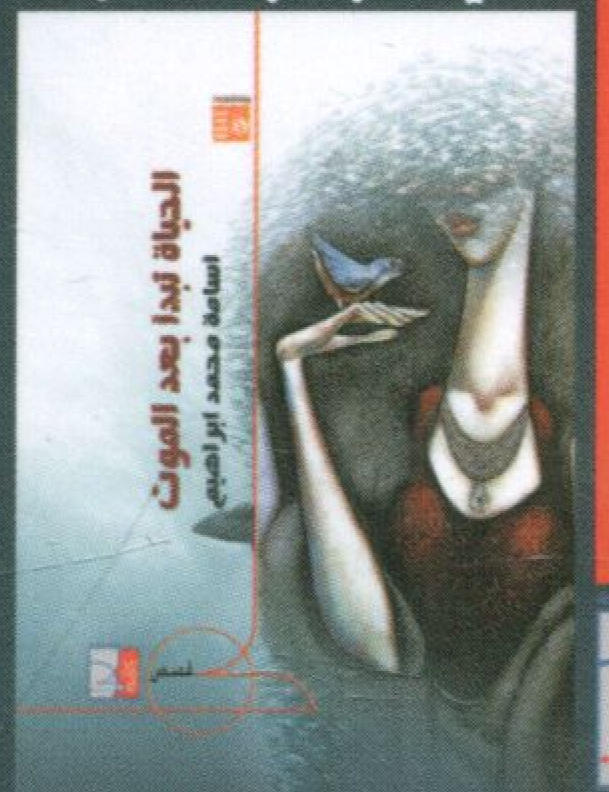
30- العالم على جسدى............ يوسف نبيل - زينب محمد

31- مش شبه الحواديت............ أحمد عبد الله سليمان

32- يا لــه من نهـــار...................... رزان محمود

كتابة 33

الحياة تبدأ بعد الموت



أسامة محمد إبراهيم

تيمة الثورة هى المفتاح التأويلى الأساسى لنصوص هذه المجموعة، فقد نجح الكاتب فى استلهام بعض تجارب الثوريين ممن فقدوا أعينهم خلال الموجات الثورية، تنديدا بما آل إليه حالهم وحال الثورة، مستخدما لغة سردية صحيحة إلى حد كبير، وإن غلب عليها الطابع الصحفى بعض الشىء؛ فالمجموعة مليئة بألوان من التناص المتميز مع التراث الأدبى والأسطورى العالمى والمفارقات، لتطرح لنا عالما سرديا ثريا مدهشا، يتداخل فيه الحلم مع اليقظة، والوهمى مع الواقعى، بمشاهد وغرائبية مليئة ومحملة بالسخرية، وينتقل بخفة من حدث لآخر، ولا يترك شخصياته دون أن تترك ملامحها فى الوجدان.

(محمود ذكرى)

الغلاف للفنان أحمد الجنايني
اللوحة IRA TSANTEKIDOU

الهيئة العامة لقصور الثقافة
www.gocp.gov.eg

الثمن جنيهان

